فَلْسَفَةُ هِيجِل للمُبْتَدِئِين

عِلمُ ظَوَاهِرِ الرُّوْح

مَدخَل للقِراءَة

تأليف/ رالف لودفيج

عرض و ترجمة/ د. نيفين صبح



دار اكتب للنشر والتوزيع



فلسفة هيجل للمبتدئين

فلسفة هيجل للمبتدئين
علم ظواهر الروح
مدخل للقراءة

تأليف/ رالف لودفيج
عرض و ترجمة/ د. نيفين صبح
الطبعة الأولى، القاهرة 2019 م
غلاف : مروة فتحي
تدقيق لغوي : دعاء السيد
رقم الإيداع : 23592 /2018
I.S.B.N: 978-977-488-604 -



دار اكتب للنشر والتوزيع

العنوان : 12 ش عبد الهادي الطحان ، من ش الشيخ منصور، المرج الغربية ، القاهرة ، مصر

هاتف : 01111947957

بريد إلكتروني : daroktob1@yahoo.com

يعد جورج *فيلهلم فريدريش هيجل* ***Georg Wilhelm Friedrich Hegel*** (1770–1831) أحد أهم الفلاسفة الألمان، و هو مَنْ أتمَّ المذهب المثالي الألماني ***Idealismus*** ، ووضع أسس النظام الأكثر شمولًا والأكثر تناغمًا في الفلسفة الألمانية. كان أحد أبرز طلابه *كارل ماركس* ومن أشهر أعماله كتاب "علم ظواهر الروح" ***Phänomenologie des Geistes*** الذي صدر عام 1807. يرى الخبراء أن هذا الكتاب العملاق هو الأكثر صعوبة على الإطلاق من ناحية المطالعة، وعلى الرغم من ذلك – وقبل أن نتطرق للعديد من المفضالات بين كتب هيجل – ينبغي على المبتدئين في مجال الفلسفة ألا يستصعبوا الطريق، لأن هذا الكتاب سيكون بمثابة رفيق الطريق الذي يرشدنا خطوة بخطوة داخل متاهة الروح الهيجيلية.

مؤلف الكتاب: درس الأستاذ الدكتور رالف لودفيج اللاهوت البروتستانتي وكذلك الفلسفة في الكلية اليسوعية وحصل على الدكتوراة

في الفلسفة عن الفيلسوف كانط. يعيش لودفيج ككاتب حر في مدينة ميونيخ، وصدرت له عن الدار الألمانية للنشر dtv الكتب التالية: "مدخل لقراءة كانط" ، "مدخل لقراءة هيجل"

"مدخل لقراءة فلاسفة ما قبل سقراط".

***

مقدمة

"من يريد أن يفهم هيجل، سيكون مضطرا أن يواجه ذلك وحده فحسب" هذه الجملة المنسوبة ل ديتر هنريش ، على الرغم من صحتها إلا أنها محزنة، نظرًا لأنّ كتاب "علم ظواهر الروح" في الواقع يدفع قارئه بعيدًا عن تلك الظواهرية، بيد أنه لابد ألا يستمر الحال على هذا المنوال، فعندما نمرر سمعنا وبصرنا على هذا العمل لأول وهلة، تنتابنا الراحة في مقولة إرنست بلوخ: "الفكرة المبهمة التي نعبر عنها بدقة هي شيئ مختلف تمامًا عن الفكرة الجلية التي نعبر عنها بإبهام؛ فالطريقة الأولى مثلها مثل أسلوب العراك في المصارعة الرومانية أو كالعاصفة الرعدية، أما الثانية فهي مجرد تخبط لا أكثر."

على الرغم من ذلك، يجب عليّ أن أعترف أنني بعد قراءتي للغة هيجل الصعبة المبهمة، كثيرًا ما كنت أحنُّ للغة كانط الصعبة أيضًا، لكنها على الرغم من صعوبتها كانت مفهومة. كان ينبغي عليّ لكي أكتب هذا الكتاب، أن أبدأ بقراءة الكثير من الكتب عن هيجل. صدقًا لقد أصابتني الدهشة مرات ليست بالقليلة من الأفكار المتباينة عنه، خصوصًا عن كتاب "علم ظواهر الروح". فعلى الرغم من تناول عدد من الشارحين لنفس الفصل من الكتاب، كنت مندهشًا من ذلك الكِبر الذي ملأ قلب بعض الأشخاص من غير المشهورين مقارنةً بشهرة هيجل، عندما اعتقدوا أنهم يستطيعون أن يثبتوا

بالدليل ثمة خطأ ما اقترفه هذا المفكر العظيم. أما إن كانوا أصابوا حقًا في هذا أم لا فهذه مسألة أخرى. على أية حال؛ إنه لشيئ جيد أن يكون المرء قادرًا على التعاطي مع كتابات هيجل، لكن يجب عليه أولًا أن يعي ما هو بصدده وهذا هو الغرض من كتابنا هذا.

هناك العديد من الأسباب لقراءة فلسفة هيجل، فالبعض يعتقد أنه كان الأب الروحي للماركسيين، في حين يرى آخرون أنه كان رائد الفكرة المدمرة لتمجيد الدولة، لكن ينبغي على المرء أن يكون لديه المقدرة على فهم هيجل أولًا حتى يستطيع ادعاء ذلك.

عنوان الكتاب الذي نحن بصدده هو "فلسفة هيجل للمبتدئين" وهذا لا يعني صراحةً، أن بعد قراءة هذا الكتاب سيتمكن الجميع من فهم هيجل على الفور؛ لذلك يوصي المؤلف القارئ المحترم أن يأخذ بقول إ. فينك:

إنه لصبر عظيم أن يتتبع المرء الدرب الفكري لهيجل، لكن الشغف بفعل ذلك يتخطى ذلك بكثير، ولربما يعد ذلك الشغف الفكري الأعظم على الإطلاق في تاريخ البشرية، وهو أن يشق المرء طريقا لاقتفاء هذا الأثر.

والآن ندعوك أيها القارئ المحترم لتحظى بجزء ولو قليل من هذا الشغف الفكري.

ميونخ، في ربيع عام 1997

رالف لودفيج

System

der

Wissenschaft

von

Ge. Wilh. Fr. Hegel

D. u. Professor der Philosophie zu Jena,
der Herzogl. Mineralog. Sozietät daselbst Assessor
und andrer gelehrten Gesellschaften Mitglied.

Erster Theil,

die

Phänomenologie des Geistes.

Bamberg und Würzburg,
bey Joseph Anton Goebhardt,
1807.

غلاف الكتاب الأصلي:

"نسق العلوم"

System der Wissenschaft

تأليف/ فيلهلم فريدريش هيجل

الجزء الأول:

" علم ظواهر الروح"

صدر في: بامبرج وفورتسبورج 1807

الصعوبات - الهدف - النشأة

كان الفيلسوف الفرنسي الروسي الأصل ألكسندر كوجيف (1902–1968) مقتنعًا اقتناعًا راسخًا أن نهاية التاريخ بدأت في مدينة ينا، تلك المدينة التي كُتِبَ فيها كتاب "علم ظواهر الروح"، بالإضافة لقناعته التامة، أنه بنهاية هذا التاريخ قد انتهى الخطاب الإنساني أيضًا، هذه القناعات كان مُجبرًا أن يفسرها بشكل معقول ومنطقي إلى حدٍ ما أمام طلابه، بعد محاضرة ألقاها عن الظواهرية عند هيجل، وكان عليه أن يوضح لطلابه أيضا، كيف أن كل شيئ عن علم الظواهر عند هيجل قدمه فيما تم شرحه بالفعل ولا يوجد شيئ أكثر مما قيل يمكن إضافته للوصول إلى فهم أعمق لعلم الظواهر عند هيجل، ثم انسحب من محاضرته وساد الصمت.

***

الصعوبات:

تجربة مختلفة تماما مع هيجل خاضها البارون بوريس دويكسكول من مدينة آستونيا، الذي عمل كقائد للحرس في الجيش الروسي قبل 130 عاما، هذا البارون الذي جاء عام 1817 إلى مدينة هايدلبرج على أمل أن يصل لصحوة عميقة لروحه ولو قليلًا في صحبة هيجل الشهير- كما أخبرنا بذلك كاتب السيرة الذاتية لهيجل كارل روزنكرانس – حيث ذهب ذاك المتعطش للمعرفة إلى أقرب بائع كتب وقام بشراء كل كتابات هيجل المنشورة حتى ذلك الحين.

وفي المساء جلس بكل أريحية في زاوية الأريكة وفتح الكتاب الأول وأراد تصفحه إجمالا، ثم قام بقراءة الفقرة التالية:

"المادة الحية هي الذات أيضا، التي هي في حقيقة الأمر الموضوع، وهي ما تدل على كل ما هو كائن في الواقع، باعتبارها فقط حركة لتأكيد الذات أو واسطة لصيرورته المتغيرة. فالمادة كالموضوع، تمثل السلبية النقية einfache Negativität المجردة، التي من خلالها يحدث الانقسام البسيط أو الازدواجية المعارضة"

أما إذا ما كان المقصود حقًا هذه الفقرة من الكتاب أو فقرة أخرى غيرها فهذا غير مهم في هذا السياق.

عندئذ اعترف البارون بوريس دويكسكول متنهدًا: " كلما كنت أقرأ أكثر وأحاول أن أكون أكثر يقظة وأبذل جهدًا مضاعفًا أثناء القراءة، كلما قل فهمي للمقروء، لذلك وبعد أن صارعت طيلة ساعتين كاملتين مع جملة واحدة دون أن أفهم منها شيئًا، نَحَّيْتُ الكتاب جانبًا وأنا متكدر ولم أكمل القراءة.."

حتى بوريس دويكسكول التعيس اعترف بكل صراحة أنه أيضًا لم يفهم ملحق الكتيب الخاص بمحاضرات هيجل وحصل من هيجل نفسه على بعض المساعدات بالإضافة إلى السماح له بصحبته في بعض جولاته.

ولأن القارئ لم يسعده الحظ بمرافقة هيجل كما حدث مع بوريس دويكسكول، فسوف يقوم هذا الكتاب بتلك المهمة. بكل تأكيد لن تكون رحلتنا بنفس خطورة رحلة أوديسيوس (د.ف ر.شتراوس) المليئة بالأهوال، ولكنها بالنسبة لنا ستكون في واقع الأمر أشبه برحلة البارون بوريس دويكسكول المسكين. لذلك عندما يحذرنا أحد المتبحرين في فلسفة هيجل (مثل هـــ. ألتهاوس) من أن تكون محاولتنا لتفسير فلسفة هيجل بمثابة ارتطام سفينة بمنحدر صخري، ينبغي ألا نتوجس من ذلك خيفة، وإنما ينبغي أن نتفق مع ذلك بمنتهى الاهتمام. إن جملة "المجازفة في سبر أغوار الروح" يا لها من جملة جميلة الرنين!، لكنها سرعان ما ستكون سببًا حقيقيًا للمعاناة.

دعونا نبدأ الآن بسـعرض "تمهيد" و"مقدمة"، فعادة ما تساعد المقدمات في فهم الكتاب الذي نكون بصدده، إلا أن مقدمات هيجل في كتبه عن علم الظواهر زاخرة بالمعلومات لدرجة مخيفة، لذلك لسوف يعتريك شعورًا غريبًا عزيزي القارىء، عندما تعرف أنه لمن الأيسر أن نقرأ العمل كاملًا حتى نستطيع فهم تمهيد ومقدمة الكتاب.

المحاضر المحظوظ المجتهد هو من استطاع أن ينتهي من تدريس "تمهيد" كتاب "علم ظواهر الروح" في فصل دراسي كامل، في حين تبقى الغالبية العظمى من المحاضرين طوال الحلقات الدراسية عالقين في محتوى التمهيد فقط. وإذا ما كان يكتفي غيرهم أيضا بتناول "المقدمة" القصيرة فقط، فكيف سيكون الحال إذًا مع الخمسمائة صفحة التي ستتبع هذه المقدمة؟ معنى هذا؛ أن كتاب "علم ظواهر الروح" سيجذبنا، لكن غالبًا ما سيغيم علينا الظلام أثناء السير في طريق فهمه، لهذا سنكون بصحبة القارئ طوال هذا الطريق البعيد.

***

الهدف:

عنوان "علم ظواهر الروح" يعني "عرض المعرفة الظاهرة"، وهنا يعترف المؤلف أنه عندما سمع هذه الكلمة لأول مرة لم يكن تصوره عن كتاب هيجل أكثر من صورة تشبه صورة الطفل فريتز، الذي يقف ممسكًا بالطباشير بيد مرتعشة أمام أستاذه وهو يحدق له بصرامة أثناء محاولته حل مسألة الحساب على السبورة. و بالرغم من هذا التشبيه فإن الفرق بين فريتز وهيجل ليس كبيرًا جدًا، فكما يريد فريتز أن يظهر فهمه على مَرْأىً ومسمع أمام معلمه، يحاول هيجل أيضًا نقل وعرض المعرفة التي تكمن وراء كل شيء في مظهر مرئي.

دعونا نعيد صياغة النصف الأخير من الجملة بشكل آخر، بغية دفع الفكرة المراد إيضاحها للأمام: جوهر الأشياء التي نعرفها ليست كامنة فقط في الأشياء ذاتها، ولكن لها مظهر أو بالأحْرَى عَرَض، لذا يجب أن نعتاد من الآن فصاعدًا على كلمة عَرَض دون أي إحساس بمذاق سلبي للكلمة. حيث أنه كان هناك شخصا اعترف بكل صراحة؛ أن ظواهرية هيجل لا يمكن فهمها أبدًا، علاوة على استشعاره شيئًا من القلق الغريب حيال ذلك، خصوصا حين طرح السؤال التالي:

العَرَض: هل هو الشيئ الذي ينقص الجوهر؟

الجوهر: هل كان سيكون إذا لم يظهر؟

هذا الشخص، الذي أشرنا إليه والذي لم يفهم هيجل أبدًا، لكنه استطاع كتابة تلك السطور كان الأديب الألماني الكبير جوته. الجوهر والعرض ليسا مجرد مفاهيم فلسفية؛ لأن الحياة اليومية مليئة بالتفاعل بينهما، فعلى سبيل المثال مفاهيم مثل: (الخير، التسامح، الاهتمام ، الصرامة) يمكن إدراكها على أنها ظواهر تخص جوهر الأم. أيضًا بالنسبة لجوهر الحب، الذي له العديد من الظواهر، التي يمكن أن تنعكس في الثقة، نشوة العاطفة، المودة، الرقة أو حتى في الرغبة، حيث يستطيع كل شخص على حدة أن يختبر إلى أي مدى يتطابق العرض الخاص به مع جوهره.

يمكننا في هذا السياق أن نفهم الفكرة الأساسية للأمثلة المطروحة أعلاه لكن بشكل أشمل؛ ذلك لأن الذات لا تكمن في جوهر الأم أو جوهر الحب فحسب، وإنما في الذات إجمالًا، أي تكمن خصوصًا في المعرفة المستخلصة منها قبل كل شيئ.أي أن لكل جوهر ذات، نستطيع من خلالها فقط أن ندرك المعرفة عندما نريد تأمل عَرَض أو مظهر شيئ ما.

تلك هي الأفكار الأساسية، التي يعرضها هيجل في كتاب "علم ظواهر الروح"، حيث يبحث الكتاب في رحلة المعرفة، بداية من كونها ذات إلى أن تصل لمرحلة كونها شيء.

يعرض كتاب "فلسفة هيجل للمبتدئين" في الجزء الأول المعرفة الحسية، ثم الإدراك، ثم الفهم إلى أن يصل إلى العقل، وفي الجزء الثاني يقوم الكتاب ببحث ظاهرة العقل، التي تتحول بدورها إلى الروح حتى تصل المعرفة إلى هدفها؛ ألا وهو المعرفة المطلقة، لكن هذا الهدف لا يزال حتى الآن بعيد المنال.

***

النشأة:

هناك العديد من التكهنات المثيرة للاهتمام حول تاريخ نشأة كتاب "علم ظواهر الروح" لهيجل، والتي تعد متناقضة بعض الشيئ.

دعونا نبدأ بالحقائق..

من المؤكد أن هيجل ذكر معلومة عكوفه على كتابة "علم ظواهر الروح" لأول مرة في مايو **1805**. في ذلك الحين كان قد مر عام واحد على وفاة العظيم كانط، الذي كان يعمل أستاذًا في جامعة ينا. في فبراير **1806** أرسل هيجل جزء من كتابه إلى ناشره في مدينة بامبرج ، راغبًا في الحصول على دفعة من حساب كتابه المتعاقد عليه.

يُذكر أنه في ليلة **14** أكتوبر **1806** قام هيجل بكتابة آخر صفحات هذا الكتاب، كما ثبت بالدليل أن هذه الصفحات قد تمت كتابتها أثناء إطلاق النار في المعركة التي دارت بين مدينتي ينا و أورستدت ، والتي نتج عنها فقدان ما يقرب من حوالي **50** صفحة من مخطوطة الكتاب، من بينها

"المقدمة"، التي أعاد هيجل كتابتها لاحقًا وأصبحت مقدمة لفلسفة هيجل إجمالًا.

ظهر كتاب "علم ظواهر الروح" أخيرًا في الأسواق (مع مقدمة)، وكان ذلك في بدايات عام **1807**. في هذا الوقت جازف هيجل بإصدار طبعة ثانية من كتابه، على الرغم من أنه لم يكن راضيًا عن صورة العمل النهائية، والدليل على ذلك أنه في إحدى الرسائل أعرب عن أمنية له تخص محتوى الكتاب فكتب يقول: "يمكننا أن نخفف قليلًا مما تحمله السفينة من أثقال لنجعلها أسرع".

الآن تبدأ الألغاز.. ففي منتصف عام **1829** قام هيجل بكتابة صياغة جديدة للكتاب، في حين أنه ذكر في وقت لاحق من خريف عام **1831** أنه لم يقُم بإعادة صياغة الإصدار الأول من الكتاب، على الرغم من ذهابه قبل وفاته بأسبوعين إلى أحد بائعي الكتب، وأسمه دونكر في برلين ، لإبرام عقد طبعة جديدة من الكتاب.

(المصدر: ألتهاوس)

إضافة لما ذُكِر نجد أن هناك العديد من الألغاز الأخرى، التي تدور حول هذا الكتاب: فمثلًا بدون صدور كتاب "علم ظواهر الروح"، كان سيتعذر عقد أية محاضرات في هيدلبرج وبرلين استنادًا إلى نظريات هذا الكتاب، على الرغم من أن هذه المحاظرات نفسها – طبقا لما قاله ديفيد فريدريش شتراوس – تعتبر البنية الأساسية، التي قام عليها أفكار الكتاب. هذا بالإضافة إلى وجود الإمكانية المتاحة لقراءة بعض النظريات الجريئة في

هذا الصدد مثل: أن هيجل كان يجب أن يتخلى عن كتابه "علم ظواهر الروح" باعتباره عمل "لا يمكن الدفاع عنه".

هناك لغز آخر أشار إليه أحد تلاميذه الأوائل هو س. ف. باخمان، موجود في صفحة عنوان الكتاب الأصلي، حيث ذُكِر فيها أن "علم ظواهر الروح" هو "الجزء الأول" من ثلاثية "نسق العلوم"، وهذا ما يجعلنا نتساءل أين الجزء الثاني إذًا؟ لنجد الإجابة: لا يوجد! واستنادًا لأحد التخمينات المدعمة بالأدلة نقدم للقارئ النظرية المستندة لرأى ت. هيرنج، والتي تحمل في طياها أكثر الاحتمالات صحة في فهم كتاب هيجل.

حتى في ينا ، كانت نية هيجل المعلنة هي الدخول إلى الساحة الأكاديمية بمشروع ونظام شامل عن فلسفته إجمالًا، و حتى ذلك الحين كان قد ظهر له مؤلف صغير هو "رسالة الاختلاف" (والذي سنتحدث عنه لاحقًا) حول الفرق بين فيشته و شيلينج، عندما أدرك هيجل أن الخطة لنظام شامل لفلسفته قد تتطلب وقتًا أطول مما توقع، وأنه ينبغي عليه أن تكون له إصدارات أخرى لأسباب مهنية. لقد كتب هيجل "مقدمة" لكتاب "نسق العلوم"، لكنه احتفظ بها كمقدمة بعد نشرها في رسالة لشيلينج، بالرغم من أن هذه "المقدمة" كانت مُعَنوَنَة من قبل على أنها "الجزء الأول" من "نسق العلوم".

وهكذا أصبحت مقدمة الكتاب في وقت قصير لا يصدقه عقل في إزدياد مستمر ولم يستطع هيجل السيطرة على الأمر، ويرجع ذلك للعديد من الضغوط الداخلية والخارجية، التي تعرض لها هيجل وقت الكتابة (كما

وصف هيرينج)، خاصة أثناء ذروة أزمة حياته في ينا (كما أشار ألتهاوس وكما سيتم بيناها لاحقا)، حيث وصلت المقدمة إلى المستوى الحالي الذي عرفناها بها، ووصل هيجل في الوقت ذاته إلى الهدف المنشود بتسمية الكتاب بـــ"علم ظواهر الروح". كان من الجدير بالذكر أن نَشْر لمِحنَة هيجل أثناء كتابة هذا الكتاب، حيث غمره فيض الكتابة وأصبح كالذي سقط في دوامة ولم يستطع الخروج منها، حتى أن أحد الباحثين أشار إلى أن هيجل في صيف 1806 قد فقد السيطرة تمامًا على تحكمه في الكتابة أثناء كتابة هذا الكتاب (أ. بوجيلير).

لم يكن لهيجل أن يعرف وقت تأليفيه لهذا الكتاب، أن الأجيال اللاحقة سوف تحسب هذا العمل على أنه "مسقط رأس فلسفته" (كما وصف ماركس)، ولا أنه سيكون أكثر كتبه شهرة وتأثيرًا، حتى أنه كان بعد الانتهاء من كتابة "علم ظواهر الروح" قد انتابه شعور بالعجز، لأنه لم يستطع تعيين ترتيبًا مناسبًا له في موسوعته "نسق العلوم".

هذا الشعور بالعجز استمر معه، خصوصًا بعد أن تم نشر كتابه "علم المنطق" Wissenschaft der Logik في مدينة نورنبرج Nürenberg، بل وعدم الإهتمام بكتابه "موسوعة العلوم الفلسفية" Enzyklopädie der philosophischen Wissenschaften، الذي صدر في مدينة هيدلبرج. وهكذا يمكن تلخيص ما حدث في أن كتاب "علم ظواهر الروح" كان بالنسبة لهيجل إجراء إجباري في موسوعة "نسق العلوم"، الأمر الذي جعله في وقت لاحق يعامله بإهمال، لأن المفضل لديه كان العرض الشامل المنهجي لنسق العلوم، والذي صدر في وقت لاحق.

المقوّمات العقلية عند هيجل

أو

المثالية

Der Idealismus



لا يمكن لأي فكرة أن تشرح نفسها ذاتيًا، دائمًا ما تكون طريقة التفكير المستقلة التي يفكر بها مثلًا طالب في أول فصل دراسي له متأثرة بما تعلمه قبلها في مرحلة المدرسة، وقبلها فيما تعلمه من والديه رجوعًا إلى ما اكتسبه من قصص الحكايات الخيالية التي كانت تحكى له في غرفته وهو صغير. الخلاصة أن كل قدرة على التفكير هي جزء لا يتجزأ من روح العصر، التي تترك آثارًا واضحة عليها سواءً قلّت أو كثرت.

لُب التفكير الفيّاض عند هيجل هو (المثالية)، والتي بدونها يكون فهم مدرسته في التفكير -الصعبة بطبيعتها- أكثر صعوبة.

كلمة "مثالية" Idealismus ترجع أصولها إلى اللغة اليونانية:

idein = sehen: (بمعنى نَظَرَ)، eidos = das Bild (بمعنى الصورة).

على الرغم من أن المعنى الأساسي لكلمة حسِّي كان يُقصد بها قديمًا ما يتعدى الرؤية الحسية والصورة الظاهرية، أو بمعنى أدق كان يُقصد بها ما يكمن وراء الصورة والرؤية الحسية، تماما مثل المقصود بكلمة "مثالي"، التي نحن بصددها الآن، والتي لا يقتصر معناها على المعنى الظاهري للأشياء فقط.

كانت كلمة صورة عند الفيلسوف اليوناني أفلاطون عبارة عن نموذج فكري أصلي أو فكرة، وكل الحقائق الملموسة في هذا العالم هي عبارة صور لهذه الفكرة، أو بالأحرى هي انعكاس مادي للصورة الأصلية والتي تعني الفكرة في الأصل.

هيمن هذا التصور على الفلسفة التقليدية الغربية بأكملها، كميتافيزيقيا وجدته سبباً موحداً لكل الفكر السائد وقتها فأصبحت هي: الروحانية أو المثالية، التي تكمن وراء هذا العالم، ذلك العالم الموجود داخل تصورنا فقط.

كانت تلك الأفكار متسقة ومترابطة مع بعضها البعض حتى حدث الكسر المزلزل في فكرالإنسان حينها متمثلًا في عصر التنوير وتبعاته و متمثلًا أيضا في التقدم الهائل والسريع في العلوم الطبيعية، الذي دفع العقل البشري إلى أن يلوذ إلى الطبيعة بوصفها المحتوى الحقيقي لجميع المعارف، بهدف التحرر من قيد الدين و الكنيسة.

كانت لهذه التجربة الاهتمام الأول والأخير في ذلك العصر، وتحت شعار التجريب تم التوصل إلى أعلى تكريس للمعرفة البشرية حتى وصلت إلى ذروتها في المادية الميكانيكية في القرن السابع والثامن عشر. حينذاك أصبحت السلطة والمادة هي المفاهيم الأساسية للفكر، وساد اعتقاد أن الأحداث الطبيعية يمكن تفسيرها فقط في إطار العلاقة بين السبب والنتيجة دون أدنى تأثير إلهي يتدخل في ذلك.

بلا شك يمكن للمرء الأخذ بالصياغة المنمقة لتاريخ الفلسفة، والتي تقول أن أعظم مفكري المثالية المؤمنين بهذا التطور كانوا "على خلاف" مع بعضهم البعض، حتى وإن كان هذا التطور لم يكن متوقعًا في مجمله.

و لعل وجود جبهة ضد النظرة المادية البحتة ومجرد رفضها كمشكلة تاريخية هو أمر مشروع في حد ذاته، و لعل من المشروع أيضًا بكل تأكيد انغماسنا في الاهتمام بأن للمثالية معنى معاصر خاص بوقتنا الحاضر. لذلك لا ينبغي علينا أن نجعل التفسير السببي للعالم من خلال العلوم الطبيعية محلا للاستفهام، لأنه يكفي أن يكون هناك مدخل مبدأي للسؤال يدور حول عما إذا كان مسموحًا أن يكون تشخيص وحدة العالم وحده كاف لأن يكون مجال اهتمام علم الفلسفة.

إن محاولات شرح الدين المسيحي و الأديان غير المسيحية، فضلًا عن محاولات موضة علوم الروحانيات السائدة، هي بلا شك طرق ممكنة لفهم المثالية الحالية، شريطة ألا يؤدي ذلك إلى انتكاس، يظهر في صورة عداء للعلم بشكل عام.

في ذلك الوقت كان مطلب المثالية يعتبر إنقاذًا للقيم التقليدية الغربية مثل الحقيقة والأخلاق والدين، كما كان أيضًا مطلب المثالية الألمانية، التي تحتاج إلى إيجاز، حتى وإن بدت في ظاهرها موجزة.

إنه طريق المثالية الألمانية الذي بدأه كانط وحلّ في آخره هيجل.

***

1- المثالية النقدية

Der kritische Idealismus

في إطار دراسة الواقع والمعرفة – وهما موضوعان أساسيان في المثالية – وجد كانط (1724 إلى 1804) أن هناك حاجزًا لا يمكن التغلب عليه ألا وهو: أن الأنا في مفهومها الواقعي تظل متعلقة بـــ"الشيئ في ذاته"، وهو ما لا يمكن تبريره، ويظل خارجًا عن إطار فهم أي معرفة، وأنه قبل الوصول لهذا الحاجز يمكن العثور على العقل، حيث يمكن أن ندركه فقط من خلال الطبيعة والواقع، وهو ما كان مسبقًا كامنًا داخلهم.

المعرفة هي بؤرة الاهتمام (الكلمة الدالة عليها:

تحول الكوبرنيكوسي (Wende Kopernikanische) (نسبة إلى ثورة كوبرنيكوس) الذاتية المحضة، التي هي أساس الموضوعية، أو بصيغة أسهل: الفاعل أو الأنا هو من يشكل الأشياء، والكون هو النموذج المنطقي الخاص به.

***

2. المثالية الذاتية

Der subjektive Idealismus

يرفض فيشته (1762-1814) نظرية كانط، التي ركزت على ضرورة تعلق الأنا بالشيئ. حيث يرى فيشته أنه كان لزامًا عليه رفض ذلك بسبب أن فكرة التعلق نفسها تتنافى مع فكرة الحرية. حتى الفهم من وجهة نظره فإنه يعتبره مسألة مرتبطة بالفعل الشخصي، لكن لا يمكن حسم ذلك، لأن التصور مرتبط أصلًا بوجود الشيئ ذاته، بالإضافة إلى أن هذا سيقودنا حتمًا إلى المادية، التي لا يوجد فيها أي دور فعلي للإنسان أصلا.

لقد وصل فيشته عن طريق هذا التحليل إلى استنتاج مفاده: أن كل ما يبدو أمامنا وكأنه العالم، هو أصلًا غير موجود في الواقع، وأن ما نراه فعليًّا في العالم هو في الحقيقة مجرد تصميم له من تنفيذ الأنا الإبداعية.

أما فيما يخص الواقع الذاتي عند فيشته فإنه يرى: إذا كان كل فعل في الواقع هو من فعل الأنا، فلن يكون هناك أي شيئ في الواقع غير الأنا

المطلقة، وأن أي اعتماد على الحكم الذاتي سيختفي، حتى الحكم الذاتي للأنا نفسها، وسيصبح كل شيئ عبارة عن "صور متحركة وفارغة من اللاشيئ إلى اللاشيئ" وبهذا تكون الفكرة التي أشار لها كانط مجرد شبح لا وجود له.

***

3. المثالية الموضوعية

Der objektive Idealismus

انحاز شيلينج (1775-1854) إلى أفكار فيشته عن الأنا كمبدأ رئيسي، حيث رأى أن كل ما في الواقع ليس سوى فكرة عن الأنا، إضافة لذلك اكتشف قدرة هذه الأنا، أو ما يسمى بـ"الحدس الفكري"، الذي نستطيع من خلاله أن نرى ليس فقط أصل الأنا الإنسانية؛ وإنما أيضًا أصل كل واقع.

هذا الأصل الذي تم الوصول إليه هو المطلق أو الألوهية باعتبارها المبدأ الأعمق للحياة. هذا الاتساع في المعنى أعلى بالتأكيد من شأن الطبيعة (طبقًا لرأى فيشته، الذي يقتصر على الأنا فقط)، بحيث لم تعد الطبيعة مجرد مسرح لأخلاقيات البشر.

بناءً على ذلك أصبح مفهوم الطبيعة الجديد عند شيلينج هو حلقة الوصل بين فيشته وهيجل.

يمكن رؤية حيوية الطبيعة كذلك في تصور بعض الأقطاب، على المستوى العضوي وغير العضوي (وهذا هو أساس الجدلية عند هيجل) (كظاهرة تجاذب وتنافر الظواهر المغناطيسية والكهربائية، سواء كانت ذكورية أو أنثوية القطب).

بمعنى أن الطبيعة في طور نشأتها هدفها الوصول لمرحلة الروح وإدراكه. و بمجرد ما تتحول الطبيعة إلى روح، يصبح كلاهما (أي الطبيعة والروح) متطابقين، وفي كلاهما تتجلى الألوهية، التي تكشف عن نفسها في صورة العقل. إن التوافق بين جميع الأضداد يمكن إدراكه على أنه عملية حياتية أو كمفهوم، وهو ما سيظهر بشكل واف عند هيجل ويكتمل في النهايةً في صورة هوية الإله المطلقة.

***

4. المثالية المطلقة

Der absolute Idealismus

يعتبر هيجل هو الممثل الرئيسي للمثالية المطلقة، لكنه يدين بكثير من الفضل في ذلك للفيلسوف فيشته والفيلسوف شيلينج، اللذان عارضهما بشكل واضح في رسالته الشهيرة عن الاختلاف بينهم "الفرق بين النظام الفلسفي عند فيشته وشيلينج"

« Differenz des Fichteschen und Schellingschen Systems .(1801) »

انحاز هيجل في هذا الكتاب بشكل واضح لجانب شيلينج، حيث كان على قناعة تامة بالحاجة للخروج عن إطار الذاتية المحضة، ولن يتسنى ذلك إلا عن طريق وجوب منح الأنا بعضًا من الاستقلال الذاتي.

فيرى هيجل، أن الأنا لا ينبغي أن تدمر كل ما هو غريب عنها – وهو ما حددته ذاتيًا أنه غريبا عنها – و وصف الأنا عند فيشته بـــ"ضراوة

التدمير". لكن يرى هيجل العكس وهو أن الأنا ينبغي أن تظل في جوهر الآخر لتعثر على نفسها من جديد.

أما الشيء الإيجابي الذي لاحظه هيجل عند شيلينج، أن مظهر الروح عنده لا يكون في الذات فقط وإنما أيضًا في الطبيعة. حيث أكتشف هيجل من خلال فلسفته أن الطبيعة لم تعد مجرد تجسيد لكل ما هو غريب عن الأنا. لكن مسألة "الحدس الفكري" عند شيلينج مع مفاجأة العثور على المطلق عنده، بدت لهيجل كأن أحدهم باغته وأطلق عليه الرصاص.

أراد هيجل في برنامجه "المثالية المطلقة" أن يشرح التطور الدقيق وطويل الأمد في كيفية تطوير الروح لذاته حتى وصل لمستوى الروح المطلقة، لقد شرح هيجل مراحل تطور الروح كلها في الفصل الأخيرمن كتاب "علم ظواهر الروح".

الآن عرفنا بعض المعلومات عن الكتاب، لكن ماذا نعرف عن مؤلف الكتاب؟

***



صورة مكتوب عليها تعليق بخط هيجل. بواسطة

س. ميتاج، 1842



الفيلسوف الأخير

أو

مسيرة حياة أحد أبناء شفابن العظماء



"لن تكون هناك فلسفة بعد هيجل". كثيرًا ما تم الاستشهاد بهذه الجملة في القرن الماضي و الشيئ الصحيح في هذه الجملة، هو أنه وفقًا لنماذج العالم الفلسفية التي قدمها أرسطو، توماس فون أكوين أو كانط، يعتبر نسق هيجل الفلسفي هو آخر تصميم فلسفي مكتمل تم تقديمه إلى عالمنا وحقق نجاحًا واسع النطاق. يرجع ذلك إلى إنعدام تقديم نسق فكري فلسفي متكامل من أي من الفلاسفة الذين ظهروا على الساحة من بعده؛ يكون له مثل هذا الأثر الراسخ على مسار العالم بأكمله.

يُعَدُّ هيجل حقًا هو "الفيلسوف الأخير" بالتأكيد هذه التسمية لها خلفية مزدوجة، خاصة عندما يعلم المرء أن الفتيات كن يقضّبْنَ جباهَهن استحقارًا، عندما كن ينظرن إلى ذلك الطالب ضئيل الحجم، الذي كان في معظم الأحيان له هيئة رثة ومرتديًا ملابس ذات طراز قديم، هذا الفيلسوف الأخير راثاه أيضًا رفيق غرفته بعد ليلة قضاها بصحبته قائلًا: "آه يا هيجل، بالتأكيد لم يكتمل عندك العقل بعد!"

حسنًا، هذا المذموم الذي وُصِفَ بعدم اكتمال عقله بعد، لم يكتمل عقله بعد ذلك فحسب، وإنما أصبح أقوى وأنجح مَنْ كتب عن الروح، والذي ترك أثرًا لم يأتِ بمثله السابقون على مر التاريخ.

"لم نكن نتوقع أبدًا أن يكون هيجل من كان"؛ هذا ما قاله أصدقاء هيجل السابقين عنه وهم في قمة الاندهاش. لكن من يستطيع أن يلومهم بسبب ما قالوه؟

***

العائلة

تعود أصول عائلة هيجل إلى ولاية كرنتن بالنمسا، حيث تم طردهم من هناك لأسباب عقائدية واستقروا في مدينة فورتمبيرج اللوثرية. كان أحد أجداده القس هيجل، الذي عمد طفل يدعى فريدريش شيلر في عام 1759.

في نفس العام الذي حصل فيه كانط البالغ من العمر آنذاك 46 عامًا على كرسي الفلسفة في جامعة كونيجسبرج ، وهو المنصب الذي كان يحلم به، وُلد جيورج فيلهلم فريدرش هيجل في شتوتغارت. وكان ذلك في السابع والعشرين من شهر أغسطس 1770، وكان الأب جيورج لودفيج هيجل؛ سكرتير بدائرة المعاشات الملكية. تزوج والده من والدته الورعة ماريا مجدالينا قبل ولادة هيجل بعام.

نتج عن هذا الزواج أيضًا الابن جورج لودفيج الذي عمل ضابطًا ومات بعد تسلمه عمله مباشرة، بالإضافة إلى أخته كريستينا، التي بقيت عامًا آخر على قيد الحياة قبل أن تقرر أن تنهي حياتها بالانتحار في عام 1832 بمساعدة أخوها هيجل.

هيجل التلميذ

التحق الطفل هيجل بالمدرسة وهو في سن الثالثة، وفي سن الخامسة درس بالمدرسة اللاتينية، ثم التحق بالمدرسة الثانوية في شتوتغارت وهو في سن السابعة. كان تصنيف هذه المدرسة الثانوية يأتي في المرتبة الثانية، بعد مدرسة كارلسشوله، التي كانت تحتل المركز الأول في جودة التعليم، والتي درس بها كلًا من شيلر وشقيقه جورج لودفيج. كان معلم هيجل المفضل هو برتسيبتور لوفلر، الذي أهداه ترجمة فيلان لأعمال شكسبير عندما كان في الثامنة من عمره. كان الشاب هيجل طالبًا مثاليا، قام لاحقًا بمشاركة أربعة طلاب آخرين بإلقاء خطاب التخرج كأحد الطلاب المتميزين بمدرسته.

كان لهيجل أيضًا ميلاً للأدب الهزلي. ففي سن السادسة عشر استطاع بالكاد أن يكبح جماح نفسه من قراءة رواية ي. ت. هيرميس الحزينة و المكونة من ستة مجلدات "رحلة صوفي من ميمل إلى ساكسونيا"، وواحدة من أكثر "الأعمال الأدبية المحزنة المملة و سيئة الجودة في الأدب الألماني القديم" (طبقا لمقولة كونيو فيشر عن هذا العمل).

***

مؤسسة توبينجن

تعد مؤسسة توبينجن الأسطورية واحدة من أهم المؤسسات اللاهوتية المرموقة إلى يومنا هذا، التي يمكن للموهوبين فقط الالتحاق بها، والتي تتخذ دير أوجستين سابقًا مقرًا لها. في خريف **1788** حصل هيجل على منحة داخل هذه المؤسسة وكانت السنوات الخمس التي قضاها هناك لها عظيم الأثر على حياته، حيث صادف وقت دراسته هناك نفس توقيت اشتعال الثورة الفرنسية وتوقيت صداقته مع هولدرلين وشيلينج. خمس سنوات من عبقرية المريدين، دان لها هيجل بكثير من الفضل. قضى هيجل في مؤسسة توبينجن أوقاتًا طويلة ما بين في دراسة مكثفة وبين قضاء ليالٍ طوال في لعب الشطرنج وأوراق الكوشتينة، أو حتى نائما في المحاضرات، أو غائبًا عن حضور الصلوات. كما عاش هيجل هناك أول قصة حب له.

اشتملت شهادة تخرج هيجل من مؤسسة توبينجن - بعد عقد امتحان له كأحد المرشحين للتخرج في عام **1793**- على بعض الصياغات، التي أشارت إلى أنه لن يكون له مستقبل مهني رائع بالضرورة: حيث جاء فيها أنه أهمل دراسة اللاهوت، كما أنه في الخطب لم يكن خطيبا مُفوَّهًا، وصاحب مستوى متواضع في اللغة، لكنه أظهر الكثير من الاجتهاد في علم الفلسفة.

1- الحياة المهنية

في البداية لم تبدو حياة هيجل المهنية مبشرة، فحينما بدأت عبقرية شيلينج في الظهور كأستاذ جامعي وهو في عمر الثالثة والعشرين من عمره، كان هيجل يعيش حياة رتيبة كمدرس منزلي منذ عام **1793** في مدينة برن بسويسرا وحتى عام **1797** في مدينة فرانكفورت.

بدأ هيجل بعد ذلك اتصاله بمدينة ينا، التي كان يعمل فيها شيلينج كمحاضر منذ عام **1798** ومهد هيجل الطريق للوصول إلى هناك.

في أوائل عام **1801** وصل هيجل إلى مدينة ينا، حيث أقام مع شيلينج في منزله قرابة العام. في ذلك الوقت كان شيلينج قد تورط في علاقة غرامية مع كارولينا شليجل. وقع شيلينج في غرام تلك الفتاة الصغيرة سنًا والتي كانت تبلغ من العمر إثني عشر عامًا. كانت كارولينا شليجل محور اهتمام الحياة الاجتماعية لمدينة ينا وموضوع حديثها الدائم. لقد كانت تلك الفتاة متعلمة لكنها مندفعة و كانت عديمة التوقير و أُشتهر عنها أنها كانت تموت ضحكًا كلما سمعت قصيدة شيلر الشهيرة "أغنية الناقوس".

انهار العالم تمامًا بالنسبة لشيلينج، عندما ماتت كارولينا قبل وفاة زوجته أيضًا بوقت قصير.

كانت ينا بالنسبة لهيجل هي المدينة التي تغير فيها مصيره، ففي ينا حصل على الأستاذية بكتابته "رسالة عن مسارات الكواكب"، و بدأ هناك أيضًا تأليف كتابه الشهير " الفرق بين النظام الفلسفي عند فيشته وشيلينج"، الذي كان في مقدمة سلسلة من الإصدارات التي لا مثيل لها ظهرت بعد ذلك.

حدث اللقاء الأول بين هيجل وجوته في مدينة فايمار في العشرين من أكتوبر من عام 1801، وكان جوته يمثل سندًا عظيما لهيجل وغالبًا ما تدخل لحل مشكلاته المهنية وحتى المالية. ففي عام 1805 حصل هيجل بمساعدته على وظيفة أستاذ (غير مدفوعة الأجر) وكان يغطي دخله من أموال المستمعين، الذين يأتون خصيصًا للاستماع لمحاضراته.

في الوقت ذاته كانت تمثل ينا لهيجل الخوف من التهديد والفشل، فمدينة ينا لم تشهد فقط ميلاد كتابه "علم ظواهر الروح"، لكنها شهدت أيضًا ميلاد ابنه الغير شرعي بالإضافة لظروف أخرى زادت من مخاوفه وعززت قراره بترك ينا؛ على سبيل المثال عودة الفرنسيين للمدينة مرة أخرى بعد انتصارهم في معركة ينا وأورشتدت بقيادة نابليون.

بعد أن أصبح هيجل ممزقًا بين هذا وذاك؛ بين الحماس والشغف باكتشاف روح العالم على ظهر الخيل (مصطلح مرجعه أحد كتابات جوته)

من ناحية وبين النهب الوحشي الذي تعرض له بيته من قبل الجنود الفرنسيين من ناحية أخرى، قرر هيجل مغادرة مدينة ينا نهائيا.

بسبب توترات الحرب تم إغلاق الجامعة وكان إعادة افتتاحها مشكوك في أمره، باختصار و بسبب تلك الظروف المعقدة شعر هيجل أنه بائس وتوهم أن مستقبله المهني زال بلا رجعة.

أثناء كتابة هيجل للصفحات الأخيرة من كتابه "علم ظواهر الروح"، كانت لا تزال آخر البنادق الروسية والفرنسية تطلق نيرانها. و عندما صدر الكتاب في بامبرج عام **1807**، تولى هيجل منصبه الجديد كرئيس تحرير جريدة "بامبرجر تسايتونج".

في خريف عام **1808**، أصبح هيجل مدير مدرسة أجيدين الثانوية في مدينة نورمبرج، التي تأسست على يد المصلح ميلانكوتون. كان المسمى الوظيفي الرسمي لهيجل حينها هو: أستاذ العلوم التحضيرية الفلسفية. وفي عام **1812** ظهر كتابه "علم المنطق" في ثلاثة مجلدات و كان هذا الكتاب هو أشهر أعمال هيجل وقتها، الذي ادعى فيه بكل جرأة أنه من أفكار الله قبل بدء الخلق.

من البداية كان يرى هيجل نورنبرج كخطوة مرحلية فقط، وعلى الرغم من أن تلك الخطوة المرحلية استمرت ثمان سنوات، إلا أن هيجل قام فيها بفعل شيء آخر غير الفلسفة وتزوج، وعليه فسوف نستغل ذكر هذا الحدث لنقوم بالتطرق لصفحة لا تقل أهمية عن سابقاتها في حياة الفيلسوف هيجل، ألا وهي النساء في حياة هيجل.

***

النساء في حياة هيجل

فيما يخص علاقة هيجل بالنساء، حكت عنه أخته كريستينا أن أخيها كان شابا خجولًا للغاية. ففي مرحلة تعليمه المدرسي في مدينة شتوتغارت قام بالاشتراك في إحدى دورات الرقص، فقط ليراقب عن كثب الفتيات الجميلات وهن يرقصن، واستمر على ذلك فترة طويلة وكان حينها يرفع شعار: مراقبة الفتيات عن بعد يقلل نسبة اقتراف الخطأ.

عندما اكتسب هيجل مزيدًا من الجرأة أصبحت ألعاب المراهنات هي المفضلة لديه، تلك الألعاب التي كان يتحتم فيها على الفتيات استبدال الرهانات الخاصة بهم بالقبلات. كانت أول معشوقة شباب ظهرت في حياته تبلغ من العمر **21** عامًا و كانت ابنة لأستاذ متوفي متخصصًا في العهد القديم، وكانت تسمى أوجسته هيجلماير.

تلك الفتاة كانت جميلة للغاية، كما أخبر عنها كاتب السيرة روزنكرانز. كانت أوجسته تقيم مع والدتها في منزل أحد الخبازين، الذي كان يتملك حانة أيضًا، وكانت تمر كل مساء من القبو المؤدي إلى حانة الخباز، وهناك كان يقف معجبوها جميعًا في انتظارها في الوقت المحدد التي كانت تصل فيه دومًا، و كان أحد هؤلاء المعجبين الطالب الشاب هيجل.

الجريئة أوجسته؛ نجمة حانة الخباز في توبينجن، التي أصبحت زوجة نائب مستشار القضاء في بادن وماتت عام 1840، كانت السبب الوحيد لبقاء هيجل على قيد الحياة أكثر من تسع سنوات بسبب عشقه لها.

بعد ذلك وفي الفترة التي قضاها هيجل بين برن وفرانكفورت دخلت حياته صديقة أخته نانيته إيندل.

لقد تركت نانيته في هيجل أثرًا واضحًا، لأنه من أجلها –وكانت نانيته كاثوليكية – أصبح مولعًا بالكاثوليكية لبعض الوقت، و التي طالما كان يشعر تجاهها في السابق عن طريق بعض اللوثريين أنها دين غريب. انقطعت علاقته بنانيته بعد قراره بتغيير وجهته إلى فرانكفورت.

قصة الحب التالية و التي زلزلت حياة هيجل بعد ذلك كانت عواقبها وخيمة. حدث ذلك أثناء تأليفه الفصل الأخير من كتاب "علم ظواهر الروح"، عندما وضعت كرستينا بوركهارد صاحبة البيت الذي كان يسكن فيه، طفلًا في الخامس من فبراير عام 1807، أسمته لودفيج ونسبته لعائلة فيشر. في حقيقة الأمر لم يكن هذا الطفل ينتمي لعائلة فيشر من الأساس وإنما للمستأجر الذي كان يسكن معها في نفس البيت وهو هيجل. كان هذا الطفل هو ثالث طفل غير شرعي لتلك السيدة المتزوجة البائسَة. بالتأكيد كان ما حدث دافعًا لهيجل لمغادرة ينا. بعد وفاة زوج كريستينا لم ينفذ هيجل وعده لها بالزواج، وكانت إعالة الطفل لودفيج مضمونة بالتأكيد من مخصصات الأموال والممتلكات التي آلت إليه من عائلة فيشر المنسوب إليها.

كل غراميات هيجل الملموسة التي خاضها بعد ذلك - قلت كانت أو كثرت - استطاع أن يفي فيها بوعده. ففي نورنبرج تزوج هيجل من ماريا فون توشر، أكبر الأبناء السبعة لأحد كبار مدراء مدينة نورنبرج، والتي كانت ينعتونها بـــ"المختارة" والبالغة من العمر **21** عامًا. عقد زواجهما أقدم مدير لمدرسة إجيدين الثانوية عام **1811**. كان هيجل يذوب فيها عشقا، لكنه كان في نفس الوقت مشغولًا جدًا بكتابة كتابه "علم المنطق"، الذي لم يتأثر البتة لا بقرار الزواج ولا بشهر العسل (مرجع ألتهاوس).

نتج عن هذا الزواج بنتًا توفيت بعد ولادها مباشرة، ثم أنجب ابنه كارل الذي مات وهو في الـــ85 من عمره، ثم طفله الثالث إيمانويل الذي مات عن عمر يناهز 77 عامًا.

بعد وفاة أمه انتقل لودفيج الابن الغير شرعي لهيجل إلى دار رعاية في هيدلبرج عام **1816** ثم بعدها إلى برلين. تم إبعاده بعد ذلك من هناك بسبب اختلاسه ثمانية قروش و تم نقله إلى مدينة شتوتغارت ودرس هناك التجارة. التحق بعدها بالجيش الهولندي، الذي أرسله بحرًا إلى إندونيسيا. في نفس عام وفاة هيجل **1831** توفى لودفيج أيضًا قبل والده بحوالي ثلاثة أشهر مصابًا بالملاريا.

***

1- الحياة المهنية

بعد ثمان سنوات قضاها هيجل في مدينة نورنبرج أصبح دائم التنقل بين العديد من المدن، إذ أنه لم يذهب مرة أخرى إلى ينا فحسب، وإنما إلى مدينة إيرلانجن أيضًا، ثم إلى برلين ثم بعدها إلى هيدلبرج، التي قرر أن يستقر فيها بشكل نهائي. كانت الفترة من **1816** إلى **1818** بالنسبة لهيجل فترة انتقالية أخرى، بدأ فيها إلقاء محاضراته أمام عدد من المستمعين لا يتجاوز الأربعة طلاب ثم إزداد تدريجيًا ليصل إلى سبعين طالبًا في المحاضرة الواحدة.

حينها حدث هناك أمر بسيط كان بمثابة حدث جلل في حياة هيجل. فبسبب كتاباته الدقيقة عن الهيكل السياسي والتنظيمي لمملكة فورتمبرج، أظهر هيجل تعاطفًا كبيرًا مع الملكية سُمع صداه في برلين، فتمت دعوته على إثر ذلك للعمل هناك عام **1816**. عندما تلقى هيجل الدعوة، لم يجعلهم ينتظرون طويلًا ولبّى دعوتهم على الفور للعمل هناك مقابل مرتب مضاعف في العاصمة الأوروبية الصاعدة وقتئذ برلين، حيث قبِل هيجل هذا العرض وبدأ من هناك عام **1818** مرحلة نجاحه الأكبر.

حصل هيجل – تحت رعاية وزير الثقافة ألتشتاين ومباركة ملك الإصلاح الوريث فريدرش فيلهلم الثالث – على إمتياز أن يكون فيلسوف دولة بروسيا، مما جعله مع فلاسفة دولة بروسيا على قدم المساواة. حينها ساد إقرار ملحوظ لرقابة الدولة على الفلسفة وأصبحت جمل مثل "الدولة هي طريق الله في هذا العالم" و"لقد هربت الفلسفة من كل دول العالم واستقرت في ألمانيا" تتردد في أنحاء برلين دون أدنى مشكلة، مما جعل فلسفة هيجل في عشرينات القرن الأخير ذائعة الصيت في العالم كله وليس في بروسيا فقط.

كانت محاضرات هيجل تبدأ عادة من الساعة 12 وتنتهي في تمام الساعة 13، وكانت تُعتَبر أهم حدث اجتماعي في برلين حينها، حيث كان يجتمع فيها أكثر من 200 مستمع، الجزء الأكبر منهم، كانوا يأتون خصيصًا للاستماع لمحاضرة هيجل العظيم فقط.

على الرغم من أن عيد ميلاده السادس والخمسين كان متوقعًا أن يكون احتفالًا كبيرًا، تحتفي فيه الدولة بفيلسوفها العظيم، إلا أنه صادف وقتًا عاش فيه هيجل العديد من اللحظات الصعبة المظلمة. ففي ذلك الوقت نالت الرقابة من نصيرها، فضلًا عما تردد عنه فيما يخص تناقض مواقفه في القضايا السياسية.

في هذا السياق نذكر ما حدث مثلًا بينه وبين فريدرش دانيال شلايرماخر، الذي كان معروفًا بأنه أهم عالم لاهوت بعد مارتن لوثر،حيث حدث خلاف شديد بين الطرفين بسبب إقالة اللاهوتي دي فيته، بسبب وصف شلايرماخر هيجل حينها بـــ"المثير للشفقة". على أثر ذلك ترددت

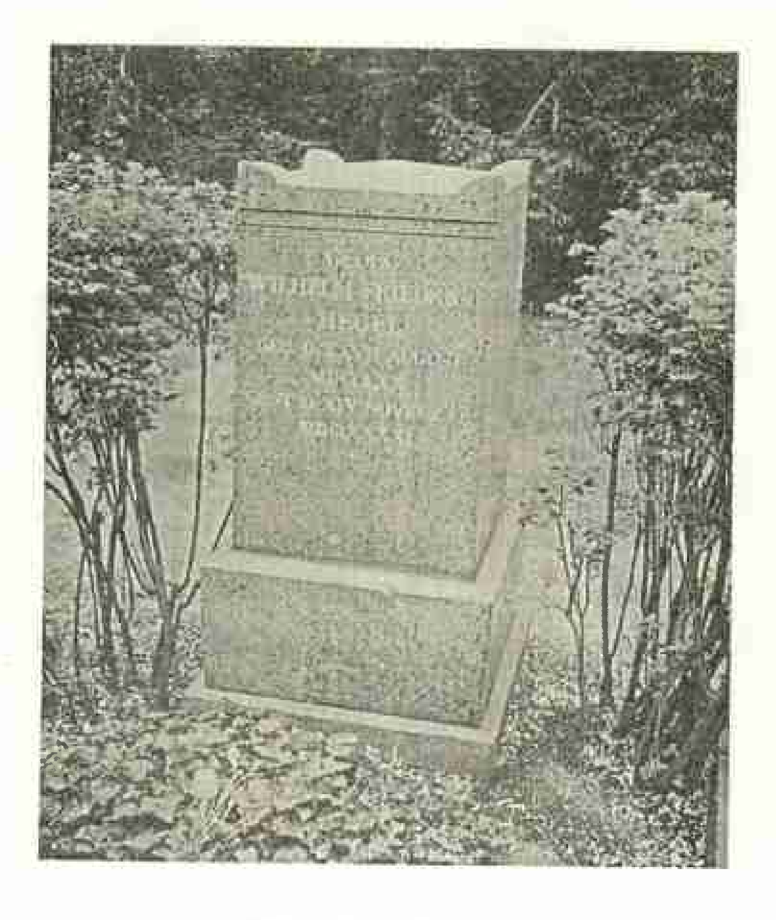
العديد من الأخبار الكاذبة، التي وصلت إلى حد قول أحدهم: إن هؤلاء العلماء العظام يمكن أن يصل الخلاف بينهما إلى درجة التراشق بالسكاكين.

وكخصم آخر لهيجل ظهر شوبينهاور؛ ذلك الفيلسوف ذو العين الشريرة، الذي مهد له هيجل طريق الحصول على الأستاذيةوبالرغم من ذلك لم يمنعه هذا من إهانة هيجل بكل قسوة في كتابه " العالم كإرادة وخيال". بكل غرور وغطرسة حدد شوبينهاور موعد محاضرته من الثانية عشر وحتى الواحدة – أي في نفس موعد محاضرة هيجل – ليوقع جمهور المستمعين في حيرة. لكن انتهى بفشل ذريع لشوبينهاور.

أدى مرض هيجل في عام **1829** إلى دخوله أحد دور الاستشفاء في كارلسباد، وهناك التقى هيجل بشيللينج، الذي كان يتجنب الحديث معه، وباءت المصالحة بينهما بالفشل، نظرًا لتأذي شيللينج الشديد بسبب ما كتبه هيجل عنه.

في الوقت نفسه كان مرض الكوليرا على أبواب برلين، لذلك انتقل هيجل في صيف **1831** للسكن في الريف في مدينة كرويتسبرج. كانت آلام المعدة التي طالما عانى منها هيجل سابقًا، بالإضافة لخوفه الشديد من أن يصاب بوباء الكوليرا هما السببين الرئيسين لوفاة هيجل. لقد عانى هيجل من أوجاع بالمعدة والقيء حتى قبل وفاته بيوم واحد.

في يوم الاثنين **14** نوفمبر **1831**، في الساعة الثالثة عصرًا أصابت هيجل تشنجات الصدر مرة أخرى. طبقا لقول السيدة ماريا زوجته وفي تمام الساعة **17:15** قضى هيجل نحبه بلا أي ألم أو معاناة، و تم تسجيل الكوليرا الآسيوية كسبب للوفاة.



قبر هيجل (الصورة: هونولكا)

أعماله

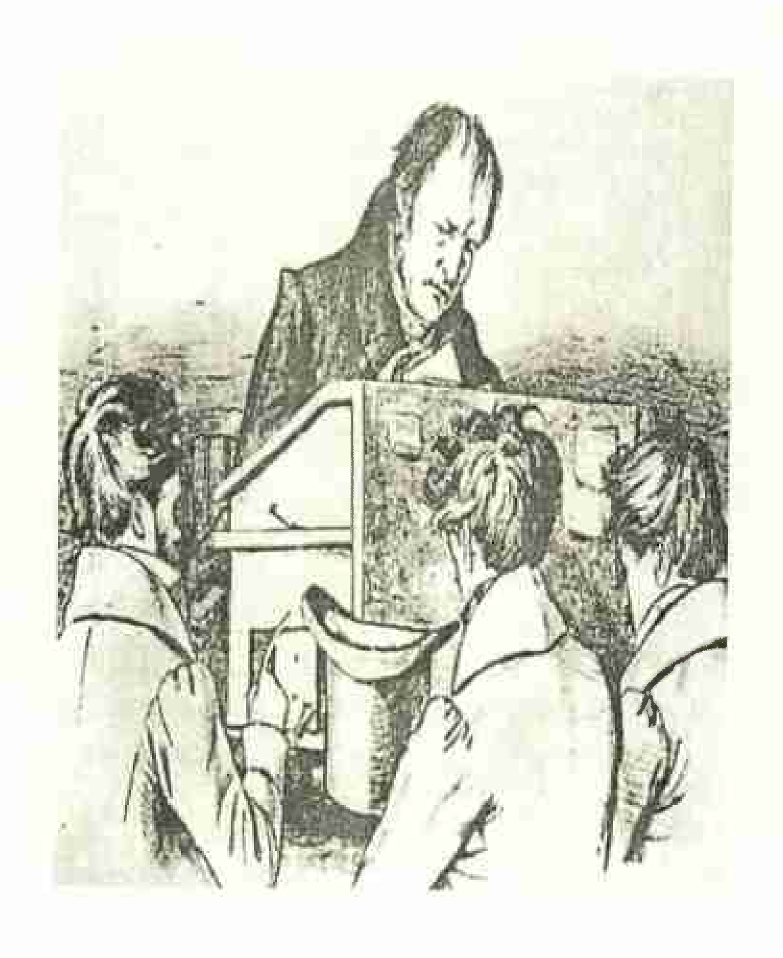
ليس من المنطقي أن نثبط من عزيمة مبتدئ قراءة الفلسفة، بأن نسرد له القائمة الكاملة لأعمال هيجل، لأن هناك طبعات كاملة مكونة من 19 و26 و30 مجلدًا. هذه المجلدات هي ما ينبغي على من أراد التبحر في فلسفة هيجل أن يقرأها، أما بالنسبة للمبتدئ فلزامًا عليه أن يتسلح مبدئيا بأعمال هيجل، التي حررها لنفسه، هناك خمسة أعمال تركز على المحطات الرئيسية الأربعة في حياته وهي كالآتي:

ينا: "الفرق بين النظام الفلسفي عند فيشته وشيلينج" 1801، "علم ظواهر الروح" 1807/1806.

نورنبرج: "علم المنطق" 1812.

هايدلبرج: "موسوعة العلوم الفلسفية" بالإضافة لطبعات أخرى منها في برلين 1817.

برلين: "مبادئ فلسفة القانون" ملخص: "فلسفة الحق" 1821.



هيجل أثناء المحاضرة. مطبوعة حجرية. رسم ف. كوجلر



مُحرّك الواقع

أو

الجدلية

Die Dialektik

في إحدى الدعوات، التي وُجِّهَت لهيجل في مدينة فايمار ، طلب جوته كمضيف من ضيفه هيجل، أن يشرح له في بضع كلمات ما هي الجدلية، فأجابه هيجل "بكل سرور سيدي"، ووصف الجدلية بأنها هي روح المعارضة المنظمة المنهجية المتوازنة و المتأصلة في كل إنسان. لم يصل إلينا للأسف مزيدًا من المعلومات التي أعطاها هيجل لجوته عن الجدلية، لذلك يجب علينا أن نشرع في فهم هذا المصطلح بأنفسنا.

الكلمة اليونانية *dialegein* المشتق منها لفظ الجدلية ***Dialektik*** تحمل المعاني التالية: "قراءة"، أو "فكر"، "رُتَب الحُجَج" أو " تحاور"، وهو ما يجعل كلمة "حوار" هي الأقرب للمعنى المقصود. من الناحية التقنية تعني كلمة جدلية أيضًا "فن المحادثة"، وهي الوسيلة الأسلوبية المهيمنة على الحوارات الأفلاطونية الشهيرة عند سقراط مثلا. وهكذا أصبح أقرب

معنى لكلمة جدلية هو "منهج الكلام والمعارضة"؛ بمعنى ميزان حجج التأييد والمعارضة، بهدف الوصول إلى قول مفصل ذو دلالة.

قال المفكر اليوناني هرقليطس: "الله هو النهار والليل، الشتاء والصيف، الحرب والسلام، الرخاء والجوع" وكان ذلك قبل 100 سنة من ظهور سقراط (المتوفي عام 399 قبل الميلاد). هذا بالفعل ما حددته الجدلية و وضعنا جميعا على أول الطريق: حيث أن وحدة الأضداد هي التي تجعل تطور الحياة ممكنًا.

عندما تناول هيجل فلسفة هرقليطس في إحدى محاضراته، لابد أن بدأ بمقولة: "من هنا يمكننا أن نرى البر".

لكن كيف يبدو هذا البر؟ الجدلية كلمة ليست كمثيلاتها، لأنها يمكن أن تؤدي إلى حياة شخصية مشوهة، وهذا هو ما يتبادر للذهن بمجرد سماع هذه الكلمة، لكن جدلية هيجل، والتي لم تُستخدم أبدًا بهذا المعنى البسيط، تتمثل في ثلاثية الفرضية والفرضية المضادة و محاولة الجمع بينهما.

أن يريد أحدهم أن يذهب إلى السينما ويفضل الآخر أن يذهب لشرب البيرة، ثم يتفقا في النهاية على الذهاب للسينما أولًا ثم شرب البيرة، فهذا لا علاقة له بالجدلية، لأن هذا ينطبق عليه المثل القائل "لكل شيءٍ وجهان".

الآن نبدأ مع مقدمة خفيفة لهيجل عن مفهوم الجدلية. أولًا وقبل كل شيء يجب أن نعرف – وهو ما يستدعي الاندهاش – أن نقطة انطلاق الجدلية عند هيجل لا تبدو في صورة غابة غريبة متشابكة من التكهنات

المجردة، وإنما يكمن مفهوم الجدلية عنده في مصطلح الحب البسيط. فيرى هيجل في الحب تحقيقًا واضحًا لذات الحقيقة، وهو ما يتم تفعيله على أرض الواقع ككل. ما قاله هيجل عن الحب هو بمثابة كنز ثمين للفكر الإنساني، الذي سوف تفيض به آلاف الروايات الرومانسية بعد ذلك.

هناك إنسان، يمثل الأنا المفردة التي تحب، شخصية هذه الأنا لا تسترح إلا لنفسها في الأساس وتعتمد بكل ثبات وسيادية على نفسها، (من لا يقبل بذلك، تقول عنه الفرضية: الأنا المتقبلة لذاتها وتدرك نفسها كتحديد ذاتي).

ولكن في الحب يحدث شيء غريب، فالمحب العاشق يخرج عن إطار نفسه وينسى ذاته ويستسلم للخضوع التام تجاه محبوبه، وفي هذا إنكار واضح ونفي للأنا الأصلية (هذا ما يمكن أن يكون الفرضية المضادة). لكن في حالة إذا ما استمرت الأنا في حالة الإنكار هذه، فإن العواقب ستكون وخيمة تظهر في صورة استعباد تام ونهاية مأساوية.

الآن يحدث شيئًا حاسمًا لهذا الأمر،لأن في التفاني الخالص للمحبوب وفي الشعور الشخصي بالواجب تجاهه يجد المحب ذاته ويدرك نفسه بماهية جديدة، فيرى نفسه في الآخر ويصادف في نفسه عمق غريب لم يكن قد اكتشفه بعد.

يقول هيجل عن هذا التوليف بين الفرضية والفرضية المضادة أنه إنكار للإنكار الأول، لأن الإنكار الأول تُنكر فيه الأنا الأصلية ولكن في هذا الإنكار المزدوج يجد المحب الأنا الجديدة الخاصة به.

يمكن تطبيق هذا النموذج مثلا على حب الأم:

حب الأم يتجسد في تحديد الأنا، في الاغتراب والتضحية من أجل طفلها وفي إنكار الاغتراب من أجل هذا الحب، بمعنى أن الضحية لم تعد في هذا السياق ضحية. المثال الخاص بذلك و الذي عرضه في "المقدمة" عن مسار البرعم مرورًا بتحوله لزهرة، ثم تصبح الزهرة فاكهة، يؤكد تلك المعرفة التي اكتسبناها عن الحب. فالواقع يكمن في الحركة، لذلك نجد أن الجدلية ليست هي الطريقة المثلى التي يمكن أن نستخدمها لطرق باب الواقع الخارجي، ولكنها عبارة عن حركة مثلها مثل أي قانون، تسري على كل ما هو واقع وموجود، فالجدلية هي قانون حركة الحياة.

الآن سنقترب من مفهوم الجدلية أكثر في ثلاث خطوات، من شأنها إثراء القارئ بمعلومات أكثر عن الجدلية.

1. كل شيئ، أيًا كان، هو مطابق لنفسه، فالحجر ما هو إلا حجر، بالطبع هذه المقولة لم تُضِف لنا أي جديد. الخطوة التالية: ما هو متطابق مع نفسه، هو في الوقت ذاته مختلف عن غيره، و هذا يعني أن التفكير ينبغي دائمًا أن يضيف جديدًا ومختلفًا، بمعنى أن الحجر ليس شجرة مثلا. بذلك يتضح؛ أن كل شيئ موجود يدل ضمنيًا على المختلف عنه.

بهذا الإدراك، نكون قد دخلنا بالفعل دائرة الحركة الجدلية للواقع، لهذا أريد أولًا أن أتبين الفرق الآنف الذكر، وهو ما يساعد المعرفة عندي أن تتقدم خطوة للأمام. الوعي الخاص بي يختلف عني وعن أي شيئ آخر مرتبط به.

دعونا نوضح هذه الجملة في خطوات متأنية..

في مكانٍ ما يوجد شيئ، هذا الشيء له ذات، بغض النظر عني أو عن إدراكي له، هو شيئ في ذاته و حقيقته وجوهره كامنان فيه،. هذا ما أسماه هيجل "كائن بذاته" ويساوي حقيقة وجوهر الشيئ.

هذه الخطوة تنتج عنها العلاقة التالية: الشيئ ليس فقط كائن بذاته، ولكن له مظهر أيضًا، أي أنه يظهر لي فيصبح له معنى في الوعي الخاص عندي، أي أن هذا الشيئ "بالنسبة لي" شجرة مثلًا. و هذا ما أسماه هيجل "كائن عند غيره" أو "الكائن في وعي غيره"،. لذلك يرى هيجل أن الذات في وعي الغير هي نفي لذات الشيئ في ذاته أو أنها تقف على النقيض مما كان عليه الشيئ " ذاته" دون الوقوف على ما إن كان ذلك غير صحيح.

هذا الحال لا ينطبق على "الكائن في وعي غيره": لأن الشيئ يتم نفيه أيضًا كمظهر، وكلاهما – سواء الجوهر أو المظهر – يجتمعان في إدراكي لهما، وفي إدراكي ينشأ شيئًا جديدًا: ألا وهو المدلول (على سبيل المثال كلمة شجرة)، لن يستطيع أحد أن ينكر، أن الشيئ الذي ينحني في مهب الريح يمكن أن يكون مختلفًا إلى حد ما عن الأحرف الأربعة ش–ج–ر–ة.

2.نهج آخر نقدمه كعرض لأصحاب المستوى المتقدم في علم الفلسفة:

– هناك شيئٌ مستقل بذاته الأصلية.

– هذا الشيئ هو مستقل بذاته فقط لأنه مختلف عن غيره.

- لكن هذا الاختلاف هو في حد ذاته يُعد مرجع؛ فالاختلاف هو دليل تلك الاستقلالية الذاتية المزعومة، و بالتالي يعود النفي مرة أخرى إلى الوحدة المكونة من الاستقلالية و التناقض.

3. وأخيرًا ملخص موجز نريد به أن نؤكد على قانون الحركة الجدلية.

- كل شيء متطابق مع نفسه أولًا هو كائن بذاته.

لكن هذا الشيئ ذاته يحوي اختلافًا أيضًا، هذا الاختلاف يتمثل في نقيضه؛ وهو ما يعني جوهره بالنسبة لي أو بالنسبة لغيره. هذا التباين يتم نفيه في إدراكي ويتم استقباله كوحدة واحدة مكونة من ذات الشيئ في ذاته وذات الشيئ عند غيره، ومن ثم إثراؤه داخل معرفتي. هذه الوحدة بينهما تتبلور بعد ذلك في صورة الشيئ بالنسبة لذاته.

- الجديد الذي نستخلصه مما قيل، أن الوحدة المطلقة في شكلها النهائي ما بين الشيئ وذاته لم تتحقق بالفعل أو بتعبير أدق لم تتحقق بعد. و يرجع ذلك إلى أن التباين بين المعرفة وبين الهدف منها يدخل في مستويات جديدة من الحركات الجدلية الجديدة أيضًا.

- ما سبق كان محاولة بسيطة للتمهيد للقارئ وإعطاؤه لمحة عن التفكير الجدلي، أما الذين استصعبوا ما تم عرضه، فلا داعي لأن يستسلموا، لأن إيضاح مبدأ الجدلية سوف يشهد الكثير من التكرار في كل فصول كتاب "علم ظواهر الروح"، مما يعني أن هناك أملًا بلا شك في أن نستوعبه تمامًا.

***

الجزء 1

الوعي

Bewußtsein



أفقر الثروات

أو

اليقين الحِسِّي

Die sinnliche Gewißheit

- مسألة فهم الواقع ليست مسألة مقتصرة على هيجل فحسب، فهناك أسئلة عديدة مثل: ما معنى واقعي؟ أو ما هي الواقعية؟ تبدو شائعة ومألوفة، ولكنها في نهاية المطاف لها طبيعة فلسفية عميقة. الرجل في الشارع قد يجيب: أنا أؤمن فقط بما أرى، لكن الإجابة بهذا الشكل المقتضب تنم عن غباء، ذلك لأن الإنسان يمتلك بطبيعته حواسًّا أكثر من نعمة البصر.

- أما إذا أجاب نفس الرجل الإجابة التالية: أنا أؤمن فقط بما يمكنني إدراكه بحواسي الخمسة، فهذا يعتبر خطوة صغيرة إلى الأمام. لكن على الرغم من ذلك يظل هذا الرجل عالقًا داخل دائرة تفكير بائسة، لأنه

سيتعسر عليه من خلالها شرح مصطلحات مثل الحب، الشوق، الحزن أو الشفقة.

- الانطباعات التي تسجلها حواسنا في كل ثانية موجودة بوفرة وكأنها لا نهاية لها، لقد غرقنا في ثراء من الانطباعات الحسِّية اللا متناهية، جعلنا نسأل أنفسنا: هل يمكن أن يكون هناك المزيد من الإدراك حقًّا؟. هذا النمط من التفكير أسماه هيجل ب"اليقين الحسي".

- وانطلاقًا من هذه المعلومات التمهيدية السابق ذكرها سنتجرأ لأول مرة أن نعرض جزءًا من النص الأصلي لهيجل لقراءته:

"المعرفة، التي هي هدفنا الأول والمباشر لا يمكن أن تكون شيئ آخر غير كونها معرفة مباشرة في ذاتها، أي معرفة المباشر أو الموجود، فنحن نتصرف أيضًا بشكل مباشر ومستقبِل، دون مقدرة على تغيير ما نراه أو منع الإدراك من الفهم.

المحتوى الملموس لليقين الحسي يجعله يظهر بشكل مباشر كأغنى إدراك؛ بمعنى إدراك لثراء لا متناهي، تمامًا كأننا ننطلق في المكان أو الزمان العامر بذلك الثراء اللامتناهي، أو كأننا نستقطع جزءًا من شيئٍ كبير ثم نغوص فيه بسبب هذا الاستقطاع، من دون الوصول إلى أي حدود.

إضافة لذلك يبرز اليقين الحسي على أنه الأكثر صدقا؛ لأنه لم يجرد الشيئ من أي من ماهياته، وإنما يضعه أمام ذاته في صورة الكمال الشامل، لكن هذا اليقين في حقيقة الأمر قد منح نفسه للحقيقة الأكثر تجردًا وفقرًا.

فاليقين يتحدث فقط عما هو معروف لديه؛ فيقول "هذا هو" أو "هذا"، في حين أن حقيقتهما تتضمن فقط ذات الشيئ. أما من جانب الوعي فيتجسد في هذا اليقين صورة الأنا المجردة، التي يمكن أن تأتي في صورة الأنا **Ich** أو هذا **Dieser / Dieses** بالنسبة للأشياء."

ومن باب المواساة البسيطة للقارئ، الذي لم يفهم النص السابق وواجه فيه صعوبات نقول له: آجلًا أو عاجلًا يعتاد المرء على أسلوب هيجل اللولبي المركب، وحتى ذلك الحين سيساعده ما نقدمه من إيضاح ولو قليلًا على الوصول لذلك.

- ما قيل للتو في هذا النص هو في الواقع معقول جدًا، فنحن نتصرف إلى حد كبير بشكل "استقبالي" فقط، بمعنى أن المعرفة لدينا تعمل مبدئيًا بدون أي مخزون معرفي مسبق وبدون أي مجهود، وهذا هو الشكل المباشر للعلاقة بين الإنسان وبين الأشياء التي يدركها بحواسه الخمسة، دون اشتراط وجود أية نظرية أو رد فعل معقد.

من المهم أن نشير في هذا السياق، أن استخدام كلمة "مجرد"، التي تحمل معنى إيجابي عند الفيلسوف كانط على سبيل المثال؛ تتضمن معنى سلبي إلى حد ما في السياقات الفلسفية عند هيجل، حيث تستخدم بمعنى "فقط"، لأن الذات المجردة عند هيجل مقصود بها الذات فقط.

***

ملخص

المقصود بالوعي في سياق الشكل البدائي لليقين الحسي هو كل ما يدل بشكل مباشر على أشياء منفردة، لكن هذا هو الخطأ الذي نقع فيه، لأن الشيء المتَخَيَّل لا يمكن إدراكه إلا بصفته العامة: كالمفاهيم التي تناولها هيجل بالشرح مثل "هذا" **Dieses** ، "الآن وهنا" **Jetzt und Hier**، خصوصا أن كل شيئ منفرد تكشفه لنا اللغة بصفته العامة، و حتى هذا الحد لا يمكن للمعرفة أن تقدم لنا قناعة ترضينا، لذلك يظل باب السؤال والبحث في هذا الصدد مفتوحًا.

***

لعبة المجردات

أو

الإدراك

Die Wahrnehmung

ارتباطًا بما ذُكِر في الفصل السابق وبعد حركة التفكير الأولى التي تم إيضاحها، نكون قد انتهينا إلى أن استخدام الذات المجردة مقصود بها الذات فقط عند هيجل، والتي يحاول فيها الوعي الحسي فهم تفاصيل الأشياء على أنها يقين. فلنضرب مثالًا على ذلك بكلمة **Dieses** "هذا" كدلالة على شيئ مستدير له عنقود صغير، و بعد التحقيق من معنى هذا الشيئ في ذاته ومعناه بالنسبة لغيره، نصل إلى الاعتراف بأن **Dieses** أي "هذا" هو شيئ عام له مصطلح، و هو "التفاحة" في المثال المذكور.

ينبغي هنا أن يقر القارئ، أن مصطلح تفاحة هو الأكثر شيوعًا واستخدامًا الآن من مفهوم "الشيئ ذو العنقود الصغير"، وبذلك نشأ ما عُرف بالمصطلح.

تُرينا الحواس الأشياء كما هي، وهذا ما يمثل حركة التفكير الأولى، التي يكون المرء فيها "مستقبِلًا" فقط، أما الآن فقد بدأت حركة التفكير الثانية، والتي تتمثل في مرحلة الإدراك، لأن الوعي يشير للشيئ في شكله الكلي ويدرك هذه الكلية على أنها الحقيقة، أي أن الوعي يتصرف وهو مدرك دون الحكم ببطلان ما سبق.

من الجدير بالذكر في هذا السياق أيضًا أن نشير إلى أن مفهوم السلبية عند هيجل هو مرادف لمفهوم الاختلاف وليس الإنكار.

عودة لفكرة الوعي الحسي، نجد أن الوعي يكشف بإدراكه للأشياء العديد من التأكيدات والاختلافات، فالوعي يضيف خصائص بعينها لحقيقة الأشياء، وفي حالة عدم حدوث ذلك يظل الشيئ "غير محدد" بمعنى "عديم الخصائص"، وبناءً عليه نكون قد وصلنا لمرحلة إيضاح تمييز الاختلاف بين الشيئ و خصائصه.

إن الخصائص التي تنتمي بالضرورة للشيئ، يجب أن تكون مختلفة عنه كشرط لإدراكها: فالطعم الحمضي، الذي هو من الخصائص الأساسية للتفاحة على سبيل المثال، لابد أن يكون مختلفًا عن التفاحة ذاتها، حتى يصبح لدينا مصطلح يسمى "تفاحة".

كل شيئ في إدراكه يعاني من تناقض، فالشيئ يصبح واحدًا، إذا كان مختلفًا عن غيره من الأشياء (فردية التفاحة تتضح في تباينها عن التفاح الآخر وليس لأنها ليست ليمونة مثلًا).

هذا التناقض (وهو ما تم التعبير عنه عند هيجل بمصطلح السلبية) ما بين الفردية والكلية يعتبر الموضوع الرئيسي للكتاب ككل، حيث يتناول الكتاب علاقة الخصائص ببعضها البعض كخطوة أولى للشرح والإيضاح، ثم علاقة الأشياء بخصائصها كخطوة ثانية.

من المهم هنا الإشارة إلى "لامبالاة الخصائص" التي تم شرحها تفصيليًا في الكتاب؛ حيث تحدَّث هيجل عما يسمى بكلية الخصائص الإيجابية، لأن صفات مثل كون الشيء أبيض أو مكعب أو حاد أو صعب لا تناقض بينهم على سبيل المثال.

بالإضافة إلى كلية الخصائص الإيجابية التي حددها هيجل أضاف أيضًا ما يسمى بكلية الخصائص السلبية، بمعنى أن صفة حلو تخرج عن نطاق صفة حار، وكذلك مستدير تستبعد مكعب على سبيل المثال.

بناءً على ذلك يرى هيجل أن الإدراك ينشأ من العلاقة القائمة بين الشيئ وخصائصه، بالإضافة إلى علاقة الخصائص ببعضها البعض، سواء كانت هذه العلاقة تتسم باللامبالاة (إيجابية) أو بالحصرية (سلبية).

أما فيما يخص "كلية الإدراك" فقد أضاف هيجل بُعدًا جديدًا للعلاقات المتناقضة (أي المختلفة) تناول علاقة الأشياء ببعضها البعض، حيث يمكن للشيئ أن يرتبط أو ينفصل عن الأشياء الأخرى بواسطة خصائصه المتعددة تحديدًا.

***

ملخص

حركة التفكير الثانية للعقل تتمثل في الإدراك، فالإدراك يفهم الأشياء بصفتها الكلية، لكن المشكلة التي تواجهه في شرح صفات الأشياء هي التناقض بين الفردية والكلية، وإذا ما حاول أن يعطي جوابًا حاسمًا، سيقع حتمًا في دائرة الخطأ.

***



نظرة خلف الستار

أو

القوة و الفهم

Kraft und Verstand

III القوة و الفهم

المظهر و العالم الروحاني

يمر الوعي في جدلية اليقين الحسي على كلٍ من السمع والبصر وغيرهما من الحواس الخمس، لكن في مرحلة الإدراك يكون الوعي قد وصل للأفكار التي تضعه أولًا في إطار *الكلية الغير مشروطة*. هذه الكلية الغير مشروطة، التي تعتبر الآن الموضوع الحقيقي للوعي، هي في نفس الوقت موضوع حقيقي لنفسها أيضًا، لكن مصطلحها لم يتم تحديده بعد كمصطلح.

الهدف من المرحلة الثالثة للمعرفة هو الجمع بين اللحظات الموجودة من الفردية المباشرة مع الكلية، لذلك وصف هيجل هذا المستوى الأعلى بالكلية الغير مشروطة، لأن الوعي كان حتى ذلك الحين قد عرف مصطلحًا واحدًا فقط، لكنه لم يتعاطى معه، لأنه لم يكن قد تم فُهمه كمصطلح بعد، لذلك أصبح فهم المصطلح كمصطلح هو مهمة الكلية الغير مشروطة.

لكن ما معنى هذا؟ هذا يعني، أننا لكي نخرج من دوامة الخداع هذه، يجب أن ننظر إلى بواطن الأشياء (وهذا ما كان مستحيلًا عند كانط، لأن ذات الأشياء في نظره غير متاحة للإنسان أصلًا). هذه النظرة خلف الستار، التي تفصل ذات الأشياء عن مظهرها، هي ما عُرفت عند هيجل *بفهم المصطلح كمصطلح*.

سنحاول الآن أن نشرح ذلك بتأنٍ.

أنا أدرك المنضدة، التي تظهر أمامي كوحدة حسية مفردة، ثم تنقسم تلك الوحدة فجأة لمتعدد فيتم ترجمتها في إدراكي إلى شيء يحمل الصفات التالية: بنية اللون، مستطيلة، لها أربعة أرجل، بها زوايا، عليها نقوش مائلة للحمرة، بها مسامير وهكذا. هذه التعددية في الصفات هي ما تجعل الإدراك مختلفا عن ذات المنضدة، لأن الإدراك في هذه الحالة يتخطى الذات في وعي غيرها، فتصبح المنضدة عندي: لها زوايا، بنية اللون، منقوشة وهكذا، وفي هذه المرحلة يكون قد برز دور الإدراك، الذي يمعن

التفكير فيما إذا كانت الوحدة الفردية أم التعددية هي التي تشكل جوهر الموضوع أم لا.

بهذا نكون قد وصلنا إلى خطوة جديدة: هذه التعددية لا تستمر في صيغتها المجزئة أمام الوعي المدرك، وإنما ترجع مرة أخرى لوحدة واحدة في صورة المصطلح.

بيد أن الإدراك لا يقف جامدًا أمام المصطلح، إنما يفتح باب التفكير فيه، وتلك هي مهمة الفهم، حيث أن مهمة الفهم هو التفكير في ما هو يعد انقساما لذات الموضوع إلى تفاصيل ثم عودة تلك التفاصيل إلى وحدة واحدة مرة أخرى.

وبناء عليه فإن كون الفهم مصاحبًا للإدراك أثناء التفكير يعتبر ذلك شيئًا أكثر من مجرد مرافقة؛ لإنها تصبح سمو بالمعرفة. إن انقسام الواحد إلى متعدد ثم عودته مرة أخرى إلى وحدة واحدة تعتبر بالنسبة للفهم هي خطوة المصاحبة الأولى.

لقد اكتشف هيجل في هذا الصدد أن هناك دستور ذاتي هو الذي يجمع الكل على نسق واحد. لذلك يعتقد هيجل أن الفهم بإمكانه حل أي مشكلة يتركها الإدراك دون حل بمساعدة هذا الدستور الذاتي، فنجد أن هيجل رفع اكتشافه هذا إلى مستوى النمط، والنمط هو عنصر النسق أو مبدأ التنظيم، الذي يدفع الفهم لتنظيم وتشكيل التفكير. هذا النمط أسماه هيجل بـ القوة، وهي نوع من أنواع الأنماط الأولية. هذه القوة عند هيجل لها وجهان:

– وجه خارجي: يتضح في أن كل قوة لا تؤثر ليست بقوة، فشرط القوة التأثير. وقد سمّى هيجل هذا بـــ التعبير عن القوة، بمعنى أن التعبير عن القوة هو ذات القوة في وعي غيرها.

– وجه داخلي: يتصح في أن القوة يجب أن تأتي من مكان ما ويتحتم ألا تُستهلك في التعبير عنها.

المهم عند هيجل هو إيضاح الفكرة التالية: أن هناك قوة وراء كل مقاومة من أي موضوع واقع تحت أي معاناة، تماما كالقوة المؤثرة فيه، لذلك تظهر تعبيرات القوة في صورة لعبة بين القوى و القوى المضادة.

***

ملخص

عندما يصل التفكير في مرحلة الفهم إلى مصطلح مثل حمضية الفاكهة على سبيل المثال، عندها يكون قد وصل لاكتشاف شيئ كلي خالص في المصطلح: وهو القوة. هنا يقوم الفهم بإعمال هذه القوة بشكل جدلي وهو ما أطلق فيه على الذات في وعي الآخر مسمى التعبير عن القوة، مثلما تفكر مثلًا في أن الأعشاب الحمضية تعتبر مطلب صحي هام، لكن هذه القوة لها ذات في نفسها أيضًا يتمثل في احتوائها على فيتامين سي، الذي يظل كقوة كامنة داخل الفاكهة. هنا يكون الفهم ناتج عن عملية الجمع بين ذات الشيئ في نفسه وذاته في وعي غيره، وهي الوصول إلي أن الفيتامين قوة غالبة في نفسها مثلًا كما أوضحنا في المثال المذكور.

نستنتج من ذلك الآن أن الفهم لا يعي فقط أن للشيئ قوة كامنة فيه، وإنما يعي أيضا المعرفة الخاصة بهذا الشيء.

***

حيث تعيش الحقيقة

أو

الوعي الذاتي

Das Selbstbewußtsein

قام الفصل السابق بإعداد مصطلح الوعي الذاتي، وبالانتقال من الوعي إلى الوعي الذاتي تكون فلسفة هيجل قد دخلت مرحلة حاسمة من تطورها.

الوعي الذاتي يدرك نفسه فقط؛ هذا ما يمكن أن نستنتجه من منطوق الكلمة نفسها، لكن هذا ليس كل شيء، لأنه لو كان الوضع هكذا، لكان أشبه بـ بعملية ذوبان بلا حراك، وسيكون دور المعرفة يتلخص في أن الأنا أنا فقط دون إضافة أي مكسب جديد كما أوضح هيجل في كتابه. لكن في الحقيقة المعرفة لها معنى أكثر من ذلك: فمعرفة المرء يجب أن تمتد لمعرفة الموضوع أي المُدَرك أيضًا.

الوصف الأكثر إيجازًا للوعي الذاتي يعود لــ "إ. فينك" و قد عبّر عنه كالتالي:

في المعرفة تعارض الأنا المعروف لديها مسبقًا، بمعنى أنها لا تعارض الموضوع في المطلق، وإنما المعروف لديها فقط. بهذا تكون الأنا غير دالة على نفسها فقط، لأن الأنا تدرك نفسها داخل إطار المعرفة بواسطة الغريب عنها، أي أنها تصل لذاتها عن طريق إدراك الذوات الأخرى.

عندما يقول هيجل أن الوعي يختلف عن ما هو ليس مختلفًا عنه، بمعنى أن جملة أنا أدرك كل ما حولي يختلف، فيها الضمير أنا عن ياء الملكية في كلمة حولي، أي أن الأنا تدرك نفسها بصورة مختلفة في هذا السياق.

قد تبدو هذه الجملة معقدة في صياغتها إلى حد بعيد، لكنها أكثر بساطة في مضمونها من وقعها، لذلك ينبغي علينا هنا أن نغير نظرتنا وننقلها لمستوى أعلى من المعرفة مع التدبر بإمعان مرة أخرى لما سبقه من مستويات. حيث أن الشيء يصير مُدركًا وهو مرتبطًا بخصائصه في إطار اليقين الحسي، ثم يقوم الفهم بإعطاء الإنسان - بفضل هذا الإدراك - هوية لتلك الخصائص، التي تكون قوتها ومشروعيتها هي المعرفة، والتي تشمل كل الظواهر الحسية.

بناءً على ما تقدم، يصبح لدينا حتى الآن ليس المعرفة فقط، ولكن أيضًا المعرفة عن تلك المعرفة.

وعليه نكون وصلنا لتعريف هيجل للوعي الذاتي، والذي عرفه بأنه حقيقة اليقين في نفسه.

لذلك يجب ألا تبقى المعرفة معرفة في ذاتها فقط، بل يجب الإعلان والإفصاح عنها في صورة تصرفات حياتية، وهنا تظهر كلمة هيجل الشهيرة التي أطلق عليها الرغبة. أي أن من يريد أن يتصرف بشكل عملي، يجب أن يُفعّل تلك الإرادة في صورة تصرف. لهذا نجد أن أساس كل السلوك العملي يتمثل في الإرادة والرغبة، هذه الإرادة هي ما أطلق عليها هيجل مسمى الرغبة.

باختصار: الرغبة هي الجانب العملي للوعي الذاتي.

***

الملخص

رقي المعرفة إلى مستوى أعلى من مستوى معرفة الشيئ فقط إلى مستوى معرفة المعرفة ذاتها هو ما نطلق عليه الوعي الذاتي. الوعي الذاتي يقوم بإجراء بعض الخبرات مع ذاته، فيوجه أداته؛ ألا وهي الرغبة إلى شيئ آخر. و بهذا يتكشف أن هذا الآخر المزعوم الذي يعتبر الجانب العملي للوعي هو في الحقيقة شكل ثان للوعي داخل الوعي الذاتي نفسه.

***



لعبة الأقنعة كتحفة أصلية

أو

سيادة وعبودية

Herrschaft und Knechtschaft

ما توصلنا إليه في الفصول السابقة هو ما ينطبق عليه وصف المركز السري لعلم الظواهر عند هيجل، وهو ما أشاد به بعض من سبقوه، واصفين إياه بالتحفة الأصلية، في حين سخر آخرون منه وشبهوه بلعبة أقنعة تنكرية ملفقة تاريخيًّا، كشفت أن تفسيرات هيجل الشيوعية ما هي إلا مرآة نضال المجتمع البرجوازي ضد الموت. انطلاقا من ذلك ينقلنا هذا الفصل من مجرد تناول فكرة الهيمنة والعبودية إلى تناول دائرة أوسع من التفسيرات المتباينة.

دعونا نترك أمر اكتشاف وجهة نظر ثورية جديدة في فلسفة هيجل لآخرين، يكفي في هذا الفصل أن نفهم ما المقصود بتلك المفاهيم ببساطة،

لأن ذلك يعتبر في حد ذاته تحدٍ كافٍ يحتاج لمواجهة، يبدأ هذا الفصل في كتاب "علم ظواهر الروح" بموجز.

أدخل هيجل في الموجز،الذي افتتح به هذا الفصل مصطلح "الشخوص المستقلة"؛ وقصد به الأفراد الذين يظهرون "بطريقة الأشياء المشتركة"، هذا مربك! حتى تفسير تلك الكلمات بشكل منفصل لن يجدي نفعًا في هذا الصدد، لهذا سوف نقوم بتشريح هذا الفصل إلى موضوعات منفصلة حتى يتسنى لنا فهم المقصود.

***

المعارضون

دعت أفكار هيجل معارضيه للقتال في ساحة المعركة. لقد كان قتالا من أجل الحياة والموت وحديث عن النصر و الخضوع، لكن السؤال الذي يظل مطروحًا هنا: من يحارب من؟

ليس من السهل أبدًا الرد على هذا السؤال، حيث أن الموقف يبدو للوهلة الأولى كما لو أن شخصَين التقي أحدهما الآخر، وتقاتل وعيهما الذاتي ليعترف كلٌ منهما بالآخر.

لكن الوضع في حقيقة الأمر ليس كذلك، فلا يوجد هناك ثمة شخصان يتقاتلا وعيهما الذاتي، وإنما هو الوعي الذاتي نفسه لكن في شكل جديد، والذي يتضح في إطاره كيف يتواجه فيه الناس مع المجتمع.

لم تكن المسألة في هذا الفصل مسالة التقاء الناس, داخل المجتمع الواحد ومواجهة بعضهم البعض، ولكن القضية هي قضية وجود أكثر من وعي ذاتي داخل الإنسان الواحد.

يجب الاعتراف بأن غلظة الصورة التي تصدرها صورة جدلية السيد والخادم تقودنا إلى رؤية اجتماعية وسياسية مضللة، لكنني على الرغم من ذلك أجدني مقتنعًا أيضًا بأن هيجل نفسه انجرف بعيدًا ولو جزئيًا عن المثال المسيحي لحياته القوية التي كان معروفًا بها.

لقد أكدنا سابقًا أن هناك شكلان للوعي الذاتي: أحدهما ما يمثل الهوية المطلقة للوعي الذاتي نفسه، ثم وعي ذاتي آخر داخله يقابله، مما يعني أن الوعي الذاتي حال تمييز ذاته نجده متضاعفًا داخليًا.

بالتالي تنجلي مسألة تضاعف الوعي الذاتي داخل ذاته في صورة الأنا التي تدرك ذاتها على أنها العكس من نقيضها.

***

الاعتراف

ينبغي أن يسهم هذا الجزء أيضًا في توضيح فكرة تضاعف الوعي الذاتي لفهمها بشكل أعمق، ولكن من زاوية جديدة، مع الإشارة مرة أخرى إلى خطورة عقد المقارنات التي لا تساعدنا في الوصول للهدف، فكل شخص يحتاج لوعيه الذاتي منفردًا، الذي يسعى جاهدًا مرارًا وتكرارًا للوصول إليه ليحيا في تناغم وانسجام. وعلى الرغم من سعي الإنسان للوصول إلى هذه الوحدة، إلا أنه يسقط خارج إطارها مرارًا وتكرارًا.

لا يشترط لتضاعف الوعي الذاتي وجود شخصين، وإنما يحدث ذلك بوجود شخص واحد فقط: لأن الصراع يكون بين شكلي الوعي الذاتي داخل صدر الشخص الواحد بهدف تحقيق الذات.

الوعي الذاتي يعرف نفسه بالآخر والعكس صحيح؛ أي أن كلاهما يعترف بالآخر. أما فيما يخص فهمنا لطبيعة ذلك الاعتراف، فهذا لن يسقط علينا كهدية من السماء، لكن الوصول لمثل هذا الاعتراف المتبادل يرتبط بصعوبات كبيرة.

تتحدد العلاقة بين شكلي الوعي الذاتي بمدى إثبات كفاءة كل منهما لنفسه وللآخر. ويتحقق ذلك من خلال خوض كلاهما لمعركة من أجل الحياة أو الموت، فكلا الطرفين مجبرين على خوض تلك المعركة، لأنهما يجب أن يرتقيا باليقين إلى مستوى الحقيقة، سواء كل وعي بالنسبة لنفسه أو الوعي بالنسبة للآخر.

***

الويل للمهزومين

أم للمنتصرين؟

يتناول هذا الجزء من الكتاب محاولة الإجابة على السؤال التالي: ماذا يحدث إذا لم يتم الاعتراف المتبادل بين شكلي الوعي الذاتي؟ أو ماذا يحدث إذا ما انتهت المعركة بموت الوعي الذاتي الآخر؟

رسم هيجل في هذا الجزء عواقب حدوث ذلك، وهو ما يجعل قتامة ألوان تلك العواقب مهددة بالاختفاء خلف تعقيدات استدلالاتها الفكرية. وفي هذا الإطار تم تعريف الموت والحياة كالتالي:

الموت: هو عملية إنكار بسيطة، نهاية للوعي دون منحه فرصة لإنكار مضاعف أو مطلق. الموت هو بقاء الوعي الذاتي في مستوي الشهوة الحيوانية، حيث يتم فيها استهلاك و تدمير الآخر. معنى الموت أيضا هو عندما يُترك الناجي من الموت وحيدًا تمامًا دون استقلاله الشخصي.

أما الحياة فهي الوضع الطبيعي للوعي الذاتي، هي الاستقلالية بدون أي إنكار مطلق. إن الذين ينتصرون في تلك المعركة يرتقون من خلال هذا النصر بوعيهم الذاتي، الذي ينبغي أن يجد لنفسه مظهر خارجي بسبب أن المظهر الخارجي لهؤلاء المنتصرين قد تلاشى بالفعل.

***

السيد و الخادم

تشكل مواجهة الموت تجربة أساسية في تحول الإنسان إلى إنسان، بمعنى انـــتقاله من كائن حي إلى كائن يدرك ذاته.

الإنسان هو بدءًا حياة؛ وتـــتجلى هذه الحياة في الرغبة. تستهدف الرغبة الأشياء وتنفيها وتهدمها، فالتهام تفاحة ضرورة لإشباع النهم. لكن طالما الإنسان رغبة فحسب، فهو لا يتمايزعن سائر الكائنات الحية وفي طليعتها الحيوان. الإنسان يرفض مجرد انـــتمائه إلى الحياة ويسعى إلى إثبات تعاليه على الحياة، فهو يريد أن يصير هو نفسه وعيًا ذاتيًا، ولا يحدث ذلك إلا عندما يقرّبه وعي ذاتي آخر، فما هو السبيل لذلك؟ السبيل هو المجازفة بالحياة أو المخاطرة بها، عندما أجازف بحياتي فأنا أُثبت للأخر وبالتالي أيضا لذاتي، أنـــني لا أُعير الحياة اهتمامًا وأن الحياة ليست بالنسبة لي شيىء جوهري، و نتيجة ذلك أنني صرت متعالٍ عليها.

معنى ذلك أن الإنسان يصبح وعيًا ذاتيـــًا في نفسه لأن وعيًا ذاتيـــًا آخر أقرّ به، أي أن إقرار الآخرين بـــي هو الشرط الضروري لصيرورتي

إنسانًا، ولتحولي من كائن حي إلى كائن لديه وعي بالذات، و لانـــتقالي من الصعيد الحيواني إلى الصعيد الإنساني. أما في حالة ما لم يــقر بي وعي آخر بالذات، فأنا لست سوى رغبة تـــنفي الأشياء. بدون المجازفة بالحياة لا سبيل إلى الحفاظ على الحرية ولا سبيل إلى البرهان على أن ماهية الوعي بالذات، التي لا ينحصر شكلها في الكينونة ولا في الشكل المباشر الذي تظهر فيه من البداية، ولا حتى في الانغماس في سعة الحياة. بالأحرى يثبت المرء بهذه المجازفة أن الوعي بالذات لا يحوي حاضرًا إلا نزل عنده منزلة اللحظة الزائلة، وأنه وجود خالص للذات ليس إلا. ما يريد هيجل إثباته هو أن الوعي بالذات يخرج عبر تجربة المجازفة وتخطي الكينونة الجامدة غير المنفصلة عن ذاتها والحاضرة أبدًا إليها، ليصير وعيًا خالصًا بالذات، أي حركة داخلية لا تشوبها أي شيئية. هذا بالإضافة أيضا لخروج الوعي بالذات على الانغماس في الحياة والاستسلام لها، أي الاستسلام إلى الحيوانية الخالصة.

ينتج عن المجازفة بالحياة احتمالات ثلاثـــة:

- يجازف فردان بحياتهما ويسعى كل منهما إلى إقرار الآخر به وينـــتهيان إلى إبادة متبادلة تحول دون إقرار أي منهما بالآخر، وفي فقدانهما الحياة، يزول وعيهما الذاتي لأن الحياة شرط لا بد منه لقيام الوعي الذاتي.

– يجازف فردان بحياتهما وينـــتصر أحدهما ويقتل الآخر، لكن المنتصر يجد نفسه في نهاية العملية كما كان في بدايتها لم يكتسب شيئًا ولم يحقق شيئًا، فهو مرغم إذًا على تكرار التجربـــة من جديد.

– يجازف أحدهما بحياته، لكن الآخر يخاف عليها، وهكذا يستمر كلاهما في الحياة.

يُـــقِرُّ الثاني بالأول، فيصبح الأول سيّدًا له ويخضع الثاني لمشيئة السيد ويصبح خادمًا عنده، أي أن الخادم قايض ا حريته بحياته وأبقى السيد عليه بشرط قيامه بخدمته.

يظهر بهذه الطريقة وعيًا خالص بالذات من ناحية ومن الناحية الأخرى وعيّ ليس خالصًا لذاته، بل حاضرًا لوعيٍ آخر، أي وعيًا عنصره الكينونـــة أو مستقرًا على صورته الشيئية.

هاتان اللحظتان لازمتان؛ لكنهما لما بينهما من تفاوت وتضاد تتمثلان كشكلين متقابلين من أشكال الوعي، ما دام انعكاسهما في الوحدة الواحدة لم ينـــتج بعد:

أحدهما الوعي المستقل الذي يؤلف صورته قيامه لذاته، بينما الآخر الوعي التابع الذي ماهيته العيش أو الوجود لغيره؛ أحدهما السيد والآخر الخادم.

يظهر انتصار السيد للوهلة الأولى كاملًا: أصبح السيد وعيًا بالذات خالصا وأظهر أنه تخطى الحياة وأنه لا يخشى الموت، أُقـــرّ بـــه لذاته دون أن يقـــرّ هو بأحد.

يستمتع نافيًا كل الأشياء الأخرى في استمتاعه، أما الخادم فقد حريته وخضع: هو يُـــقرّ دون أن يتم الإقرار به وهو يلبي كل رغبات السيد فقط ليحافظ على حياته.

لكن الجدلية تقلب الأمور رأسًا على عقب وتبيّـــن خداع المظاهر: فلا السيد سيدًا ولا الخادم خادمًا، بل إن الخادم هو سيد السيد وحقيقته.

***

العكس: الخادم و السيد

الخوف من الموت والعمل

ذكرنا آنفًا أن الوعي بالذات لا يصبح وعيًا بالذات إلا عندما يقر به وعي بالذات آخر. الخادم يقر بالسيد، لكن السيد لا يقر بالخادم، فالسيد لا يرى في الخادم وعيًا بالذات، بل يرى فيه مجرد كائن حي، وهكذا فالسيد غير مقــرٍّ به من وعي آخر بالذات.

يــبدو السيد متصلًا اتصالًا مباشرًا بهاتين اللحظتين: الشيئ كشيئ، موضوع الرغبة والاستهلاك والإفناء، والخادم الذي تشكل الشيئية ماهيته، لأنه لم يقــرّ بــه أحدًا كوعي بالذات، لكنه في الحقيقة غير متصل بهما اتصالًا مباشرًا لأنه لا يعرف الشيئ إلا عبر الخادم (السيد يستمتع والخادم يعمل)، ولا يُعرف الخادم إلا عبر الشيئية. بهذا يكون السيد وحده القوة النافية الخالصة التي يشكل الشيئ بالقياس إليها عدمًا. بقى أن العرفان بالمعنى الصحيح للكلمة لا يزال يفتقد إحدى لحظاته؛ تلك اللحظة التي يُجري فيها السيد على نفسه ما يجريه على الفرد الآخر، ويجري الخادم

على السيد ما يجريه على نفسه، و هي التي لم ينـــتج منها سوى اعتراف من جانب واحد، خالٍ من المساواة.

الخادم الذي خاف الموت هو بالمقابل وعي بالذات، عندما خاف الخادم الموت السيد المطلق (الذي يقر به الجميع دون أن يقر بأحد) أدرك ذاته وتعرف إلى وحدها وشموليتها، فهو لم يخف على مقـــتـــنى من مقتـــنياته (داره وأمواله مثلا) ولم يخف على عضو من أعضاء جسمه (يده مثلًا)، لكنه خاف على كليته من العدم، "إن وعي الخادم قد استشعر المخافة تحديدًا، لا مخافة على هذا الموضوع أو ذاك، لا من خلال هذه اللحظة أو تلك، بل الخوف على وجوده ككل، لأنه قد أحسّ برعب الموت، وأن السيد المطلق، إذا أحسَّه أيضا يكون قد تسرب إليه الذوبان في طياته الدفينة، ودبت الرعشة في أعماقه، وجميع ما قد رسَخَ فيه اهتـــز".

السيد لا يدرك كلية وجوده ولا وحدته: فهو مبعثر في الاستمتاع ومجزأ في الرغبات، أما الخادم فيدرك مجموع شخصيتـــه ووحدها ويخرجها هكذا من ميدان الأشياء الجامدة لتكون اهتزازًا خالصًا وتحقيقًا للنفي المطلق وللوجود للذات الخالص: "ولكن مثل هذه الحركة الكلية والخالصة، مثل هذه الإذابـــة المطلقة لكل بقاء، لتلك الماهية البسيطة للوعي بالذات، لذلك النفي المطلق، لوجود الذات الخالص، أي في الوعي نفسه".

***

في الخوف من الموت يــبطل العبد شيئًا بعينه ليحلّ فيه النفي الخالص، وهكذا نعود إلى نقطة البداية، أي النقطة التي انطلقنا منها مع قول هيجل: النفي معناه الحرية، أي الجريمة. الخوف من الموت يجعل الموت في داخل الإنسان ويحوّل الخادم إلى موت نافٍ. عندئذ يجد الخوف نفسه وسط شبكة واسعة من العلاقات تؤكد اختلافه عن الأشياء لتنــتقل إلى تغيــير الأشياء ذاتها: فوعي الخادم يطّلع على الوجود للذات في السيد كأنه شيئ مختلف أو هذا الإدراك للذات المختلف ليس إلا لــه وفي الرعب منه يحل القيام بالذات به. أما في تشكيل الصورة Das Bilden فيصبح عنده القيام للذات مساوٍ لقيام ذاته الخاص، وبذا يتوصل إلى الوعي بكونه نفسه موجودًا في ذاته ولذاتــه"، بمعنى أن الخادم يدرك من الخارج الوعي بالذات متحققًا في السيد: هذا الوعي هو له وليس بــه.

تكمن أهمية هذا الإدراك هي معرفة ماهية الوعي بالذات، ولو دون تحقيقها، لكن الخادم – بفضل الرعب – يحقق هذا الوعي بالذات في داخله ويصبح اهتزازًا خالصًا ونفيًا مطلقًا دون أن يدرك ذلك. أما في العمل "التشكيل"، فتتحقق وحدة ما هو لذاته وما هو بذاته: ينفي الخادم الأشياء ويغيرها، فهو نفي خالص ورفض لكل ما هو خارجي وثابت، لكنه أيضًا تصوير للذات النافية في الموضوعات وتحقيقها ومــدّها بالبقاء والاستمرارية، وثمــة حلقة وسيطة بين الخوف والعمل هي الخدمة Dienst: بغير قسر الخدمة والطاعة يــبقى الخوف شكليًا ولا ينسحب على الموجود في جميع ما يحضر له بالفعل.

الخدمة تعمم الانفصال عن الأشياء واستقلالية الذات وحركتها، لكنها لا تترك بصماتها على الكينونة ولا تغير في سحنـــة الاشياء.

بغير النشاط التكويني يـــبقى الخوف خوفًا داخليًا أبكم ولا يصير الوعي وعيًا لذاته، الخوف من الموت والعمل يتكاملان إذًا في بلورة صورة النفي: فالوعي إن أخذ في التكوين دون أن يخبر هذا الخوف الأول المطلق، لم يكن إلا مسلكًا لأجد في معناه الخاص؛ فما صورته أو نفيـــيّته بالنفيّـــية في ذاتها، إن الوعي إذا لم ينصهر في الخوف المطلق وقف عند هذه المخافة الجزئية أو تلك، بقي بَوْنٌ بينـــه وبين ماهيته النافية، وبقيت هذه دون أن تتغلغل في جوهره.

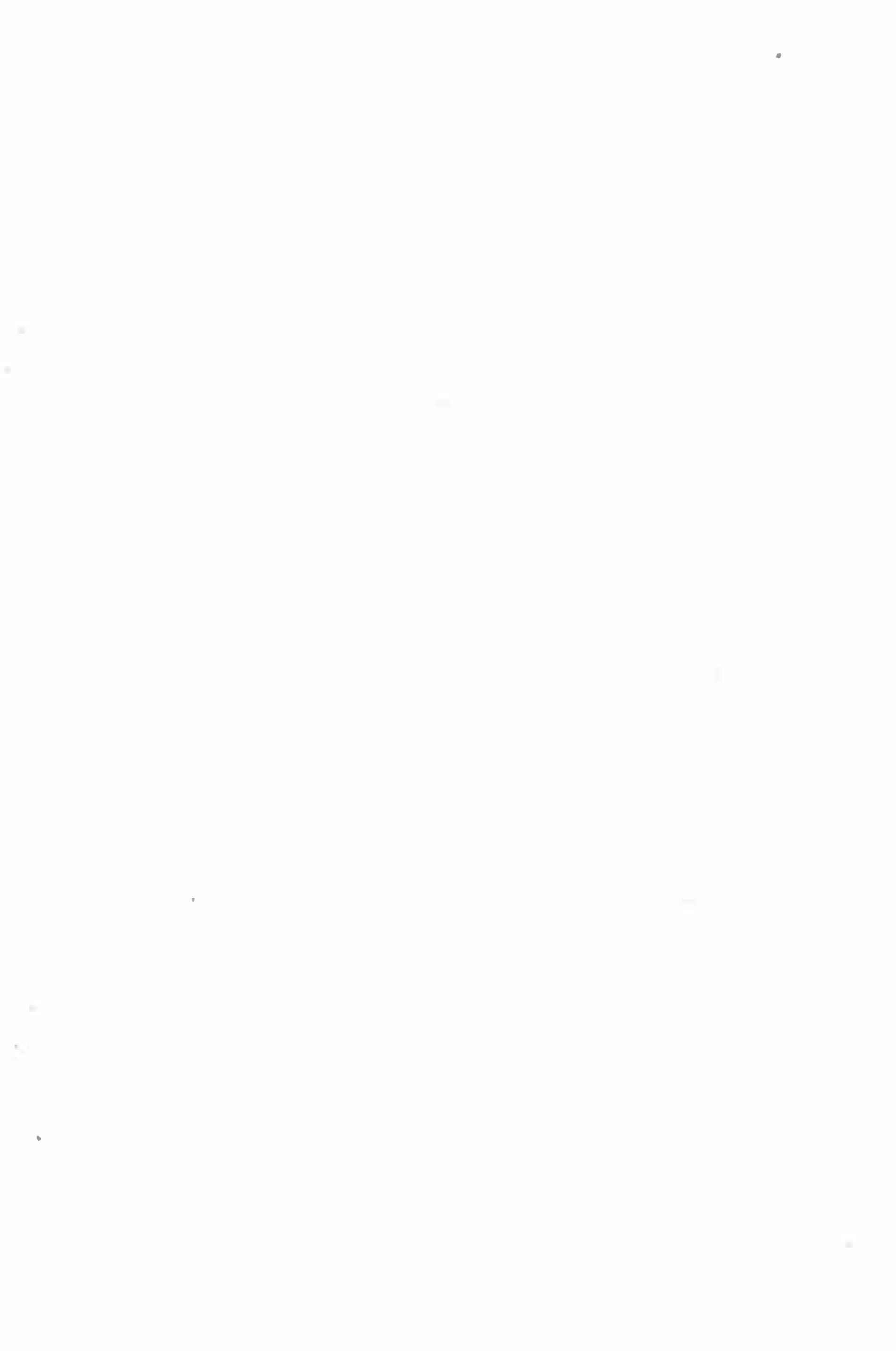
وهكذا تمـــرّ خبرة الوعي في مواجهة الموت عبر الآخر، وفي مواجهة الآخر عبر الموت، وبتكامل الخوف والخدمة والعمل مع بعضهم البعض.

***

ملخص

يتصارع داخل الوعي الذاتي شخصان، إنه صراع من أجل الاعتراف المتبادل. لقد كان صراعًا شرسًا كأنه صراع من أجل البقاء. لكن على الرغم من ذلك لا يمكن أن يفوز في هذا الصراع أيًا من الطرفين، لأن السيد والخادم يحتاج كلاهما للآخر، أي يحتاج كلا الجانبين داخل الوعي الذاتي لبعضهما البعض.

***



آفاق قاتمة أو الوعي التعس

اهتم هيجل بالاغتراب وخصص له حيزًا كبيرًا من حياته الفلسفية والعلمية. حيث يرى هيجل أن الإنسان مغتربًا بالضرورة وأطلق على هذا الشعور بالاغتراب الوعي التعس. ويرى هيجل ان هذا الشعور متجذر في وجود الإنسان، إذ أن هنالك ثمة انفصام موروث بين الفرد بوصفه ذاتًا مبدعة خلاقة تريد أن تكون وتحقق نفسها، وبين كونها موضوعًا واقعًا تحت التأثير والاستغلال. إن الاغتراب عند هيجل هو وعي الإنسان بالفجوة بين العالم الحقيقي والعالم المثالي، وأن وعي الاغتراب هو فهم لطبيعة الوجود الإنساني، لأن الاغتراب ينشأ من عملية تفاعل الفرد مع الحياة والتجربة للكائن الإنساني المغترب. إذن يرى هيجل أن الاغتراب هو حالة من التحصيل الناتج عن تفاعل الفرد مع الحياة والتجارب، الذي يبني فيه الإنسان داخل عقله وكيانه عالمًا مثاليا يفترض فيه ما يشاء ثم ينصدم بعد ذلك بما هو حقيقي و واقعي.

نهاية سعيدة للوعي الذاتي أو العقل

ما ذكرناه سابقا يحيلنا إلى الانتقال إلى ما يعرف ب *الوعي السعيد* وهذا *ما ينقلنا* إلى مستوى أرقى. في هذه المرحلة الأرقى والأعلى يقر المرء أن العقل هو سبب أي شيء واقع، فالعقل هو مبدأ التفكير الخاص، وهذا ما عبر عنه هيجل بقوله: *العقل هو يقين الوعي بأنه هو الحقيقة*. و بناءً على ذلك يكون الوعي التعس قد تم إصلاحه من قِبَلِ العقل، لكننا لا نعرف إلى الآن كيف تم ذلك، وهذا ما سنقوم بإيضاحه في الفصل القادم.

***

الجزء 2

العقل

Vernunft



المطلب الكبير

أو اليقين وحقيقة العقل

Gewißheit undWahrheit der Vernunft

بالوصول إلى هذا الفصل الذي سوف نشرع في إيضاحه الآن والذي يحمل عنوان "العقل" نكون قد وضعنا أسسًا لإحدى علاقات الترابط المهمة في فلسفة هيجل.

كان الوعي قيد حركة مستمرة صاحبته حتى الآن، حتى وصل إلى ما هو عليه الآن، وهو ما عُرِفَ باسم الوعي الذاتي، الذي لا يتضمن الذات فقط؛ وإنما الآخر أيضا. هذا الشمول هو ما أحدث انقسامًا حتى في المصطلح نفسه، فأصبح انقسام الوعي البائس ينتسب لوحدة واحدة.

المقصود بالوعي البائس هنا؛ هو ذلك الوعي الذي يتأرجح ما بين واجب إنقاذ نفسه بنفسه والحفاظ عليها على حساب العالم و بين إنقاذها والحفاظ عليها على حساب واقعه الخاص، و كلا الخياران يمثلان موقفًا

سلبيًا بالنسبة للوعي تجاه ذاته. لقد أستطاع هذا الوعي البائس أن يدرك، أن الاختلاف المؤلم ما بين الخيارين المذكورين قد تم تحديدهما من قبل الوعي نفسه.

عند وصول الوعي لهذا الإدراك وهذا المستوى من التفكير يكون قد وصل بالفعل لمرحلة العقلانية، التي يصف فيها كل شيء حوله بمقولة كل الواقع هذه المقولة تعتبر هي المقولة التي اشتهر بها المذهب المثالي في الأساس.

في السابق كان الوعي يشتهي الأشياء الموجودة في العالم، يدمرها أو يعدلها طبقًا لاحتياجاته وهكذا، أما الآن وتحت سطوة العقل أصبح العالم عند الوعي عالمًا جديدًا يملكه ويتحكم فيه كيفما يشاء.

"العقل هو يقين الوعي، بمعنى أن كل شيئ يعتبر حقيقة واقعة". بهذه الكلمات وصفت المثالية مصطلح العقل. فالعقل في المذهب المثالي ليس ثروة أو إنجاز فكري للإنسان، لكن العقل هو نتاج لحركة الفكر الجدلي، التي تناولناها بالشرح في الفصول السابقة. حركة الفكر الجدلي التي بدأت من مستوى اليقين الحسي حتى وصلت لمستوى اليقين الذاتي.

لقد أوضح هيجل أن التوتر الذي يمكن أن يقع في براثنه العقل يأتي بسبب وجوده، أي ما بين ما يؤثر عليه وما يؤثر فيه، بمعنى ما بين التفكير والواقع داخل العقل نفسه. هذه الحالة أطلق عليها هيجل التراجع المضاعف للوعي الخالص.

ملخص

بعد تخطي الوعي مرحلة انقسامه، يظهر في صورته المتطورة في شكل *العقل* بدعوى جديدة؛ وهي أن أي شيئ هو حقيقة واقعة، لكن لم يصل العقل بذلك إلى مرحلة التأكد التام، لأنه ظل يتأرجح ما بين فكرة الشيء كوحدة ثابتة وما بين الحركة المضطربة لكل ما هو مختلف عن هذا الشيئ.

***



التنقيب عن كشف جديد
أو العقل المراقب

Die beobachtende Vernunft

يعتقد الفلاسفة اليونانيون الأوائل أن الإنسان الفضولي الباحث عن الحقيقة هو أول من اكتشف العقل، أو بالأحرى هو من اكتشف مبدأ وجود ما قد يسمى بالعقل في هذا العالم. على عكس هيجل الذي يرى أن العقل لم يتم اكتشافه في هذا العالم أصلًا، وأن العقل هو من اكتشف العالم ثم كشف عن نفسه لهذا العالم، ذلك لأن العقل هو نفسه العالم.

لدى العقل اهتمام عام بالعالم ككل، لأنه يعتبر نفسه هو اليقين الذي يحمل في طياته الحاضر، أو لأن الحاضر يتسم بالعقلانية ويتضمن خصائصها. حيث أن العقل يبحث في الحاضر عن الآخر من خلال الوصول إلى معرفة وأن الحاضر ليس به شيئ آخر سوى العقل نفسه.

من عمق معرفة كون العقل هو العالم نفسه كما أوضح هيجل، أصبح هناك دليل على وجود العقل في الواقع المرئي، وهو ما يُعد *التعبير الحسي* لهذا الواقع. بهذه الطريقة يكون العقل قد حوّل الحسية إلى مفاهيم، أي *الذات داخل التفكير* والعكس أيضًا *التفكير داخل الذات*.

أما الطرّيق الذي يسلكه العقل المراقب لرصد الطبيعة فيكون عن طريق التحرك ما بين الذات والتفكير بهدف الوصول في النهاية إلى وحدة كلٍ منهما. و يفعل العقل ذلك كنوع من أنواع الدوافع التلقائية للمعرفة، وهو ما أطلق عليه هيجل *دافع العقل* أو *غريزة العقل*.

نأتي للخطوة التالية؛ ألا و هي بيان الاختلاف ما بين جوهر الموضـــوع وظاهره. سبق أن تناولنا بالشرح أن بين جوهر الموضوع وظاهره فرق كما جاء في إيضاح مفهوم *الفهم* عند هيجل آنفًا. الجديد في هذه المرحلـــة أن الوعي يعرف نفسه داخل الموضوع لكنه يظل مترددًا فيما إذا كان جـــوهر الموضوع هو نفسه جوهر المعرفة أم لا.

في هذا المستوى من التفكير تكون الاضطرابات الجدلية ملحوظة على غرار ما حدث بين الإدراك والتفكير وتم إيضاحه في وقت سابق، بمعنى: هل ذات الشيء في الطبيعة هي ذات ثابتة؟ أم أنها في علاقة متحركة مع ذوات أشياء أخرى!

أما في مرحلة التفكير التالية يكون العقل المراقِب قد أقَرَّ بقوانين الطبيعة، وطبقًا لهذا القانون يصبح مطلب العقل الأساسي هو وحدة التفكير والذات معا.

استطاع العقل المراقِب بالفعل أن يجد مسارًا لا تزال تحمل فيه مسألة الاختلاف والتطابق بين الفردي و الكلي ثمار الجدلية. هنا في مرحلة مراقبة الوعي نجد العقل حاضرًا بوضوح. فالعقل هو من أوجد القوانين – قوانين التفكير– عن طريق العودة إلى نفسه وتوجهه إلى المفهوم الحقيقي على أنه مفهوم حر.

العقل هو من اكتشف أن القوة تكمن في التفكير، ليس فقط قوة تحديد الشيئ، وإنما قوة إبطال هذه الخصوصية: أي قوة النفي والإنكار.

***



ملخص

انطلاقًا من ادّعاء أن كل شيئ في هذا العالم واقع، بدأ العقل بمراقبة الطبيعة و استطاع في صورة غريزة العقل أن يمر بنفس المراحل التي مر بها الوعي الحسي، لكنه اختلف عنه فقط، في أن العقل يدرك ويعرف أنه هو ذات الآخر، أما العقل لم يفهم فقط المفهوم ولكن فهم ما أدي إلى فهم هذا المفهوم.

***



خطوة نحو الأخلاقية

أو تحقيق الوعي الذاتي

Die Verwirklichung des Selbstbewußtseins

إلى هنا يكون انتهى مسار دور العقل من خلال الطبيعة. وعلى الرغم من النكسات التي مر بها إلا أنه كانت هناك عودة: الوعي الذاتي له وحدة مرتبطة بموضوعية العالم، لكن تحقيق هذه الوحدة لم تتم على أرض الواقع وأصبح على العقل مهمة أخرى،. لذلك ارتقى العقل من مستوى العقل المراقب إلى مستوى العقل الفاعل، الذي يريد في النهاية أن يصل لتحقيق تلك الوحدة.

استخدم هيجل مصطلح الأخلاقية **Sittlichkeit** كمرادف لمفهوم العقل الفاعل. إن الأخلاقية عند هيجل تعني الأخلاق الذاتية أو الأخلاق الفردية أو ما يمليه الضمير على صاحبه. ويرى هيجل أن هذه الأخلاقية تحتاج بكل تأكيد إلى مكان تتحقق من خلاله، مكان يتواجد فيه أفراد يتعاملون مع بعضهم البعض فتتجسد الأخلاقية في تصرفاتهم وتفاعلهم مع بعضهم البعض.

يعيش الوعي في حالة من النزاع ما بين الفردية والكلية، هذا النزاع ينتهي في الوعي الذاتي للآخر ويجد وحدته فيه تمامًا مثلما يحدث في نزاع الوعي الذاتي للشخص الآخر: ينتهي نفس النزاع داخل الوعي الذاتي الخاص بي ويجد وحدته داخل الوعي عندي.

أو بأسلوب أبسط: يتحقق الروح وعالم الأخلاقية في الوعي الذاتي المتبادل المعترف به بين الأشخاص الواعية بذاتها. ويعتقد هيجل أن تحقق العقل الواعي يحدث في حياة الشعب أيضا، وليس المقصود بالشعب في هذا السياق الشعب من منظور قومي، لكن المقصود المنظومة الأخلاقية، أي العالم الذي تتحقق فيه الأخلاقية الفردية.

تتحقق فكرة الانتقال من الوعي الذاتي المجرد إلى الأخلاقية من خلال تأمل فكرة الجريمة والعقاب على سبيل المثال، حيث يكشف حدوث الخطأ أو الجريمة عن وجود فرق بين الإرادة الفردية والإرادة الكلية. حيث تتعارض الإرادة الفردية مع الإرادة الكلية في حالة حدوث الخطأ أو الجريمة وحينها تجد الإرادة الفردية نفسها معارضة لذاتها الخالصة بالتبعية. و نتيجة لذلك هي حدوث تنافر داخل الوعي الذاتي للإرادة الفردية بين ما هو كائن وما ينبغي أن يكون.

***

ملخص

دخل الصراع بين جانبي الوعي الذاتي إلى مرحلة جديدة؛ وهي المرحلة التي يريد فيها العقل أن يكون له دورًا فاعلا في الإطار الأخلاقي ويتحقق ذلك بتعامل الأفراد مع بعضهم البعض داخل منظومة الشعب التي تعني المنظومة الأخلاقية كما أوضح هيجل. يريد الفرد في هذه المنظومة أن يصل لتحديد مصيره، لكنه يلاحظ أن التمتع غير المقيد بالعالم والرؤى الديكتاتورية لتحسين العالم و الفضيلة باعتبارها كلية فارغة لا طائل منهم ولا يتناسبون مع أهدافه. لذلك قرر أن يختار مسار الشر البسيط للإرادة الفردية الفاعلة داخل الإرادة الكلية الشاملة.

***



فرحة على عجل

أو الفردية الحقيقية

Die reelle Individualität

أصبحا الكلية والفردية على وشك المصالحة والتوافق فيما بينهما، أو هكذا يبدو لنا. أما إن كانت هذه المصالحة نهائية أم لا فهذا لا يزال محل تساؤل. لقد تم الإعداد لهذه المصالحة عن طريق المعرفة، عندما صارت الكلية قابلة للتحقق فقط من خلال الفردية الفاعلة وأصبحت الفردية الفاعلة قابلة للتحقق دون ادِّعاء أن الكلية ما هي إلا *ذكاء فارغ*. لقد انتصر سباق الدنيا على الفضيلة، لكن كمعارض للفضيلة، ثم هُزم نفسه بعد ذلك في نفس السباق، لأن سباق الدنيا الحقيقي هو الذي ينبغي أن ينتصر فيه الخير في النهاية.

يمكن أن نرى أن الفردية والكلية متشابكتان، بل ومخترقتان لبعضهما البعض أيضا، مما جعل هيجل يقول: *إن الفردية هي الواقع بالنسبة لذاته*.

أي واقع هو ما يدور في مدار العقل وموجود داخله، أما هدف الفعل في هذا الواقع فينعكس في حركة العقل. و يعنى هذا أن تصرف الإنسان ما هو إلا لعبة داخل العقل، وليس تصرفًا خارجًا عن إطار الوعي.

وبناءً عليه فإنه لا وجود لفجوة بين الذات والفعل الذي تقوم به، وهذا ما تم التأكيد عليه في كتاب "علم ظواهر الروح" وخصوصًا فيما يخص ظواهر الروح في نطاق الفعل، لأن الفعل هو أحد ظواهر الذات.

***

ملخص

بين الكلية والفردية علاقة متبادلة ومتشابكة تجعل الذات والفعل الذي تقوم به في الوعي الذاتي الحقيقي متطابقَين. يوجد بين العقل والفعل من التوافق ما يجعل الإنسان يتصرف حيال ما يقوم به كالسمكة تجاه الماء، لكن بسبب العديد من الأسماك الأخرى يوجد هناك أعمال تنافسية فيما بينهما أيضا، وهو ما يؤدي إلى انتفاء أي صورة من صور الاستقلالية.

لذلك علينا أن نجد طريق للوصول لجوهر أخلاقي تتوافق فيه كلّ من الكلية والفردية معًا داخل فعل أخلاقي واحد. وعلى نهج هذا الطريق يكشف لنا الوعي أن القناعة المطلقة بذاته والاختبارات الشكلية للقانون لن تمضي بنا قدمًا للوصول إلى الحق الأبدي للوعي الذاتي الأخلاقي.

***



الجزء 3

الروح

Geist



السير داخل التاريخ

أو

الروح

Der Geist

بوصول القاريء إلى هذا الفصل من كتاب "علم ظواهر الروح" يكون قد وصل إلى أهم عتبات هذا الكتاب. قبل هذه العتبة كان القارئ شاهدًا، كيف توّلدت أشكالًا أرقى من الوعي نتيجة الصراع المستمر بين الكلية والفردية، لكن هذا الصراع وكل مرحلة جديدة من التطور كانا ينتقلان داخل الوعي الفردي، حتى و إن حدث ذلك في بعض الأحيان بتأثير غيره عليه.

عند وصولنا للعتبة الهامة المذكورة أعلاه لاح أمامنا في الأفق أحد المعضلات؛ ألا وهي كيف يمكن للفردية أن تتحقق داخل الكلية! فكل فعل أخلاقي يحوي بداخله فعلًا أخلاقيًا أيضًا ولكنه في حاجة لمحيط

اجتماعي يضمه ويظهر من خلاله. لقد ظل هذا الفعل حتى الآن عالقًا في فضاء فارغ، لكن بالسير فوق العتبة التي نحن الآن بصدد الحديث عنها وبالسير داخل الواقع الاجتماعي سوف ينتقل الفعل الأخلاقي من الفضاء المجرد إلى دائرة المجتمع الأخلاقي.

هنا يتحقق مفهوم الروح، الذي أعلن عنه هيجل كمفهوم مستهدف منذ فترة طويلة، مفهوم الروح الذي يُعتبر نقطة التحول الشهيرة للوعي الذاتي.

الروح: هذا المصطلح سوف نقوم بتقديمه وشرحه للقارئ تدريجيًا:

الروح هو العقل الذي لديه يقين أن كل شيئ واقع، ليس فقط ما هو مؤكد وإنما أيضًا أي شيئ يرقى لمستوى الحقيقة. يعتبر الروح هو الجوهر الأخلاقي، هو الواقع الأخلاقي، هو المنع والتخطي الموجودان داخل الوعي الذاتي الفردي.

الروح هو الحياة الأخلاقية للشعب. ويعتقد هيجل ذلك لأن تحقق الفرد يتحقق داخل منظومة الشعب، حيث يتحقق الفرد من خلاله طبيعته الكلية، والعكس صحيح أيضًا فتتحقق الكلية فيه بطبيعتها الفردية.

***

أ- الروح الموضوعي- الأخلاق

Der wahre Geist. Die Sittlichkeit

وجد هيجل بحسه الجدلي أن هناك لحظتان سقطتا من وعي المجتمع الأخلاقي: القانون الإنساني والقانون الإلهي.

وكلاهما يشيران إلى الوعي الذاتي:

(أ) أولًا القانون الإلهي: هو ما ينطبق في إطار المجتمع الأخلاقي على مفهوم الأسرة، ففرد الأسرة هو من كان طرفًا في إحدى العلاقات التالية: علاقة الزوج والزوجة أو الآباء والأبناء أو الأخ والأخت. بصياغة أخرى أكثر تفصيلًا: على سبيل المثال تظهر المرأة في العلاقات الأسرية في أربع صور فتكون الزوجة، الأم، الابنة أو الأخت.

(ب) القانون الإنساني: هو ما ينطبق في إطار المجتمع الأخلاقي على مفهوم الدولة. فالفرد هو المواطن الذي يظهر دوره في الدولة من خلال الإنجاز والخدمة والجدارة، لكنه يمكن أيضًا استبداله والعلاقة الرئيسية التي تتضح بها تلك الفكرة هي علاقة الفرد تجاه الدولة والحكومة.

في هذا السياق تظهر الفكرة الأكثر قبحًا على الإطلاق في فكر هيجل الجدلي، حين بالغ هيجل في رأيه وقال التالي: لكي لا يكون هناك مجالًا واسعًا لانتشار استقلال الفرد باتساع ملكيته أو بازدياد ما يكسبه أو حتى بمنحه مجالًا أفسح لممارسة متعتهيعد فرضًا على الحكومات من حين لآخر أن تزلزل الأرض من تحت قدميه بالحروب.

(ت) هناك حركة بين القانونين: القانون الإنساني يأتي من القانون الإلهي ويعود إليه مرة أخرى. حيث يتحقق واقع هذين القانونيين في صورة الأسرة أو الشعب ووجودهما الفردي يكون موزعًا على أساس الجنسين بين الرجل والمرأة.

(ث) الوعي الأخلاقي يعرف ما يجب عليه القيام به ويستطيع أن يقرر متى يكون منتسبًا للقانون الإلهي ومتي يكون منتسبًا للقانون الإنساني. هذه القدرة على الحسم واتخاذ القرار أسماها هيجل *الشخصية*. لكن هذا الحسم يتحول لفعل فيصبح مصدرًا لإزعاج المنظمة الهادئة للمجتمع الأخلاقي وحركته، فيصبح ذلك الحسم - عندما يتحول لفعل - في نظر المنظمة الهادئة هو تجاوز للقانون. وعليه فإن كلا القانونين يستبعد بعضهما البعض ويرى كل واحد منهما الآخر أنه النموذج السيء.

(ج) يمثل القانون الإلهي الإرادة الفردية على الجانب المعارض لـــ *العنف البشري العشوائي*، في حين يمثل القانون الإنساني على الجانب الآخر عن طريق عصيان أو طاعة أوامر الحكومة التي تمثل الإرادة الكلية.

وهكذا يحدث انقسام في وحدة القانون الإنساني و القانون الإلهي و يتحول الفعل إلى جرم، لأن إثبات ذات الفرد ستعتبر عندئذ خيانة للإرادة الكلية.

من منظور جديد للحركة الجدلية تتضح الفكرة التالية: ليس الفرد الذي يقوم بالفعل هو من يعتبر مجرمًا، وإنما الفرد بتبعيته للإرادة الكلية واشتمالها عليه هو من يصبح بفعله مجرمًا.

هذه هي مأساة العالم الأخلاقي و مصيره، الذي من انهياره يتحول مصيره ويتغير شكله.

(ح) لقد ساد مناخًا من الانهيار عندما *تفتتت الكلية إلي ذرات من الأفراد*، ورأينا *كيف تسقط القوى والأشكال المختلفة للعالم الأخلاقي في الحتمية البسيطة للمصير الفارغ*.

كل شيئ يعود إلى مرجعه الأصلي وهو *الأنا البسيطة للوعي الذاتي* **das einfache Ich**، التي تتفكك فيها ال *نحن* **Wir** وتعود وتستقر في الوعي الذاتي، الذي انطلق منه كل شيئ من الأساس، وهو ما انطلقت منه الأنا البسيطة المتمثلة في الشخص الذي نتج كبقايا للتفتيت الذري للكلية في هيئة أفراد.

هذه الشخصية هي استقلالية الوعي الذاتي الحقيقية المعترف بها، التي تحيا بمساواة يكون فيها الكل كالكل؛ أي للكل حقوق متساوية، وعندئذ يسود ما يسمى بالموقف القانوني.

في إطار هذا الموقف القانوني يعتبر الشخص؛ الذي هو الوحدة الفارغة المجردة هو نقطة الانطلاق، ثم يتم الزج به في دوامة جدلية جديدة. لقد عارض هيجل فكرة أن الوحدة الفارغة المجردة تعتبر هي محتوى حقوق الأشخاص المختلفة.

هذه المعارضات تم دحضها في نقطة التقاء، وهي النقطة التي اجتمع فيها تنوع الذرات الشخصية في نقطة غريبة عنها وغير منطقية بالنسبة لها.

أطلق هيجل على نقطة الالتقاء تلك مسمى سيد العالم: من خلالها نستطيع تصور ماهية السلطة وكيف يتم تقديم القيصر أو وصي الإمبراطورية أو أي حاكم إلى شعوبهم.

سيد العالم يتحقق فيه شيئين: هو نفسه أنا فارغة وفي سلطته التي يملكها يتحقق المحتوى المطلق، أي أن شخصيته تعتبر مزجًا بين الذات المفردة والتنوع العام للشخوص المفردة تحت سلطته.

***

ب- الروح المغترب عن ذاته- التعليم

Der sich entfremdete Geist. Die Bildung

الآن نكون وصلنا إلى المرحلة التي لا يشعر فيها الروح بالرضا. عندما انهار عالم الأخلاق ابتكرت الروح عالمًا جديدًا من بقايا الأنا الفارغة ومواجهاتها مع المحتوى الملموس؛ ألا وهو الموقف القانوني، وهو ما لا يشعر فيه الروح بالأمان ويسيطر عليه فيه الشعور بالاغتراب.

حدث هذا الابتكار عن طريق عملية تجاهل معينة:الوعي الذاتي الحقيقي يعبر إلى العالم الحقيقي عن طريق تجاهل نفسه ثم يعود ويعبر العالم لنفسه مرة أخرى بنفس الطريقة. بهذا يصبح شرط الواقع هو اغتراب الشخصية كما هو الحال الآن.

يعني الاغتراب عند هيجل: أن يتحول الروح، الذي هدفه أن يكون له كيانه الخاص وهويته الخاصة، لتحقيق حريته، في هذه المرحلة من تطوير الروح لذاته وتنميتها يستخدم ذاته كجوهر لمواجهة كل شيء يحدث له.

بالنظر إلى هذه المواجهة نجد أن الفرد يشعر بفجوة بين نفسه وبين الواقع الاجتماعي، الذي يشعر تجاهه باغتراب، لأن الاغتراب يعني حالة الفرد الذي يريد تحقيق ذاته عن طريق التغلب على وحدته الفردية ليوائم الواقع الاجتماعي، ويتم ذلك فقط عن طريق التعليم. فالتعليم هو الطريق للتنوير والمرشد للحرية المطلقة.

تكمن مهمة التعليم في كونه هو السلطة على العالم الحقيقي، الذي لا زال يعتبر نفسه واقعًا عاقلًا، على الرغم من التجاهل الناشئ بينه وبين الوعي الذاتي. هذا العالم العاقل نجده مرتبطًا بعاملين ذا صلة بتعليم هيجل نفسه قلّما تم الالتفات إليهما: سلطة الدولة والثروة أو بصياغة أخرى الاقتصاد.

***

ملخص

الوعي الذاتي، الذي يدخل في الحياة الأخلاقية للشعب هو الروح، وفي الحركة بين الدولة والأسرة تتأرجح الروح ما بين عنف الدولة وعناد الفرد، هذا التوتر المألوف بين الإرادة الفردية والإرادة الكلية موجود حتى الآن بحكم الحتمية التاريخية، المجتمع يقمع الفرد الذي يحيا به وبسبب هذه المعضلة ينهار العالم الأخلاقي.

من تحت هذه الأنقاض ظهر ما سُمِّيَ بالموقف القانوني، في شخص "سيد العالم" ساد التوتر نفسه بين الأنا-متمثلة في شخصية الحاكم أو الامبراطور- وبين واقعها السياسي المطلق، في هذه الحالة لا تشعر الروح بالأمان، ويسيطر عليه الشعور بالاغتراب، عندئذ أرادت الروح أن تتغلب على هذا الشعور من خلال "التعليم"، لكن في عالم التعليم والوعي عاشت الروح أيضًا حالة من التمزق، لأن الدولة والاقتصاد جيدين كانا أو سيئين، بينهما اتفاق على ذلك، وهكذا حاصر التوتر القديم بين الفردية و الكلية مجددًا الواقع الاجتماعي و السياسي.

الاغتراب قبل النهاية أو التنوير

Die Aufklärung

يعتقد الإيمان أن الذات المطلقة هي كائن أُخروي في الأساس، لكن البصيرة النقية تعتقد عكس ذلك وتعرف أن الذات المطلقة هي النفس. لهذا يجب على البصيرة النقية أن تدخل في صراع ضد مظاهر المعتقد الديني، الذي تكشف فيه عنها ذلك القناع كأحد الخرافات. البصيرة النقية هي ما أدخلها هيجل في هذا الصراع تحت مسمى التنوير.

وجدت البصيرة النقية لنفسها ضحية جديدة وهي الذات المطلقة، التي يتضح فيها أنها هي سبب الإيمان وفعله. كانت التهمة تتلخص في أن الذات الإلهية تم تشبيهها بالإنسان، ومرجع ذلك أن هناك من يؤمن بأن إله يمكن أن يكون من حجر أو خشب أو حتى عجين.

يعتقد التنويرأن سبب الإيمان هو *معرفة بالصدفة لمعطيات تظهر بالصدفة أيضًا*. أما بالنسبة للإنسان فيراه التنوير أنه *حيوان واعٍ بذاته* محمَّلًا بأفكار نفعية وأي شيئ يحقق له السعادة.

وهكذا أصبحت العلاقة بالإله و الدين بالنسبة للتنوير خاضعة لمبدأ *الانتفاع من أي شيئ يمكن الانتفاع منه.*

هكذا أصبحت المشكلة ليست مشكلة الدين فقط، وإنما مشكلة التنوير نفسه أيضًا، حيث أن التنوير لم يطبق التنويرعلى ذاته، لأنه لم يحاول أن يتعرف على نفسه بنظرة نقدية.

***

ملخص

دخلت البصيرة النقية مضمار الصراع في صورة التنوير المضاد للدين، وهو ما يعتبر في عرف الواقع إلحادًا، وحددت المكان الوحيد لإعمال العقل بوجود الاغتراب من خلفه والحرية الشاملة من أمامه. لقد استطاع الوعي أن يجعل عنده الإرادة الفردية مع الإرادة الكلية على قدم المساواة. لكن بالنسبة للحرية المطلقة، التي ترغب في الاستمرار في السلطة، تعتبر في حقيقة الأمر إرهاب فردي للانفراد بالسلطة.

***

المحطة قبل الأخيرة

أو

الأخلاق و الضمير

Moralität und Gewissen

كانت فرنسا الثورة، هي الدولة التي خلَّفَها الروح، أما الدولة الجديدة، التي أتت بها فكانت ألمانيا المثالية. لقد كانت ألمانيا هي الدولة التي اكتمل فيها مذهب المثالية على يد هيجل، والذي كان قد بدأ في صورة *المثالية المتعالية* قبل ذلك على يد كانط. لذلك لم يعد من المستغرب أبدًا أن يقدم هيجل على عجل على تقديم فكرة اغتراب الروح المجرد كفكرة مضادة للمفهوم الأخلاقي عند كانط.

يعرف الروح الكثير عن حريته، وهو ما يجعله حر بشكل مطلق، لكن هذه الحرية المطلقة قد أدت في الحقبة السابقة إلى انتشار الإرهاب والموت، لأن الفرد أراد أن يكون السلطة الشاملة للإرادة الكلية. أما في هذه الحقبة الجديدة فسوف يكون الوعي الذاتي الخالص هو نقطة الانطلاق

للأفعال الأخلاقية وسيدرك الفرد الواجب على أنه ذات الأفعال الأخلاقية المطلقة.

لكن على العكس ما حدث في نهاية الأمر كان فشلًا ذريعًا للرؤية الأخلاقية، بسبب ما حدث من مواجهة بين الواجب والواقع. كل فعل كان ينتهك الانسجام المرجو بين الطبيعة والأخلاق. بمنطق يصعب فهم الغرض منه زعم هيجل أن كل تقدم مزعوم في اتجاه اكتشاف غرض العالم المطلق سيكون بمثابة تقليص للأخلاق، لأن الغرض النهائي لا يعرف أخلاقيات للفعل الفردي.

مفهوم الضمير عند هيجل يعتبر خارجًا عن المألوف، فالضمير عنده ليس هو المرجع، الذي يمكن أن تختار منه بعض الواجبات وتصدر حكمًا بشأنها، كما أنه لا يعتبر وعيًا ذاتيا بالواجب يمكن ارساؤه كمبدأ استرشادي لأفعالنا، لأن الضمير هو ما له حقيقة في ذاته داخل اليقين المباشر.

***

ملخص

يدخل الانسجام بين الإنسان والطبيعة في إطار الأخلاق، لكن الروح لم يستطع الوصول إلى ذلك المستوى كرؤية أخلاقية. لهذا لجأ لخدعة، أطلق عليها *التكيُّف*، لكنها لم تجدي نفعًا أيضًا وأصبحت السعادة المرجوة في التسليم للمصادفة. أدعى الشكل الجديد للضمير أنه هو *اليقين المباشر*، لكن تحطمت ثقته بنفسه عند ظهور التناقض ما بين الواجب الخالص النقي وبين الواجب الفردي، الذي لوث نفسه بالأفعال الفردية، التي يمكن وصفها بالمتناقضة أيضًا. إن الاعتراف المتبادل بشكوك الشكل الجديد للضمير كشكل من أشكال التوفيق بين الروح وعكسه، هو ما سمح بظهور الإله كإمكانية للمعرفة الخالصة.

***

الروح قبل الاكتمال

أو

الدين

Die Religion

إن استخدام جملة الإله الذي ظهر على مسرح مأساة العالم تُعَد بداية صادمة لهذا الفصل. بالطبع تعتبر صياغة ظهور الإله تعبير مبالغا فيه، لأن الدين هو ما يمكن أن نعتبره مظهرًا للروح، الذي يبدو في صورة المطلق والمعرفة وليس الإله ذاته. هذا ما تم طرحه على ساحة الجدل والنقاش قبل الوصول إلى مستوى الستار النهائي للروح المطلق.

تشير الصيغة الأخيرة بالفعل إلى وجود فرق واحد موجود بين الروح المطلق الحقيقي وبين مظهره أو معرفته بذاته، لهذا نجد الروح الذي يظهر في صورة الدين في حراك مستمر لأنها تريد معرفة ذاتها، بأن تظهر الصورة التي يبدو بها أمام وعيه مطابقة تمامًا لصورة ذاته.

هكذا تتشعب صيرورة الروح لأشكال عدة من الدين، تم ترتيبها في أشكال محددة، نذكر منها في هذا الصدد ثلاثة:

الدين الطبيعي: هو ما يُعرف الروح فيه نفسه كشكل من أشكال الموضوعية.

الدين الفني أو(دين الفن): الروح يترفع فيه عن الطبيعية ويدرك ذاته من خلال الفعل فقط.

الدين السماوي: يجمع الروح فيه ما بين شكلي الروح في النمطين السابقين للدين محاولاً تخطي المعنى المصطلحي فيهما للتخلص من أي موضوعية كامنة داخله.

***

ملخص

يظهر الروح - من التوفيق بين أشكال الضمير المنقسم - في شكل الدين. حتى الدين السماوي بعد التغلب على أشكاله البدائية لا يزال يحتاج إلى ما يستند إليه ليتمكن من تصور الروح المطلق. هذه "التصورات" هي آخر موضوعيات الوعي التي يحتاج المجتمع التغلب عليها، للوصول إلى المعرفة الخالصة.

***

سقوط الستار

أو

المعرفة المطلقة

Das absoluteWissen

نحن الآن على مقربة من الهدف الذي نريد الوصول إليه، حيث الاعتقاد قبل أن يتحول إلى معرفة وحيث التصور قبل أن يتحول إلى تفكير خالص. ما كان يُعتبر في الدين سابقًا مجرد شكل من أشكال التصور أصبح الآن في المرحلة النهائية لشكل الروح هو شكل روح الذات. هذا الشكل الأخير يمثل المعرفة المطلقة وشكل روح الذات يمثل المفهوم الذي يرتقي كعلم عن كل مستويات الوعي الأخرى.

كل شكل من أشكال الوعي يحمل في طياته تناقضًا، وهو ما مرمن خلاله الروح حتى وصل إلى مستوى راق، مع الاحتفاظ بكل المستويات

التي مر بها مسبقًا. لذلك شدد هيجل على وجود علاقة زمنية بين المعرفة المطلقة وبين ذوات كل الأشياء، اللذان تنشغل بهما كل مستويات الوعي.

الطريق من الروح إلى كمالها في روح العالم ما هو إلا حركة ما بين المكان والزمان، ما بين الطبيعة والتاريخ. لكن كيف يمكن لمحتوى المعرفة المطلقة أن يظهر ويتجسد؟ هذا التجسد هو تجسد محدد الشكل، الذي يُشكل محتوى وهدف الروح المطلق فيه مجرد تصور لقد أجاب هيجل على ذلك عندما شرح، أن المحتوى والهدف هما ذات الحركة بين المكان والزمان، الذي تتخلى فيه الذات عن ذاتها وتتعرف على ذاتها في ذوات أخرى.

في هذا الصدد تثبت صحة مقولة هيجل الأكثر شهرة في فلسفته والتي تقول الطريق هو الهدف.

وعلى الرغم من ذلك أصبح لدينا هدف مؤقت مرة أخرى، وهو ما لا يمكن ظهوره مجسدًا أمامنا: إنه المفهوم الذي اتخذ فيه الروح قرارًا حول كيف سيكون شكل حركته.

هذا المفهوم الذي يتكشّف فيه الوجود وحركته هو في حد ذاته علم. في العلم تتوقف الحركة الحتمية للمواجهة المستمرة، حيث يصبح المفهوم المجرد شكلًا متحررًا من مظهره في الوعي.

الآن نأتي إلى أحد التحولات الواضحة، والتي تعتبر مثيرة للدهشة للوهلة الأولى وهي أن النفس تأخذ على عاتقها مهمة التحقق في المفهوم المجرد ثم الرجوع إلى الوعي مرة أخرى.

لقد برر هيجل ذلك، بأن كل اللحظات المجردة للعلم ما هي إلا مثل متطابق للروح الظاهرة، وقابلية اكتشاف هذا التجسيد هو ما يعادل حقيقة المفاهيم المجردة. تحدث تلك القابلية للاكتشاف في كلٍ من الطبيعة والتاريخ، أي في الروح المتحقق في المكان، وفي الروح المتحقق في التاريخ أيضًا.

***

ملخص

يُعتبر الروح والمطلق لفظان مترادفان، لأن الروح المطلق يعني ه من ناحية معرفة الروح بواسطة الروح، ومن ناحية أخرى إدراك المطلق عن طريق المطلق. فالمطلق لا يصل إلى ذاته ويعرف حقيقتها إلا عن طريق الروح المطلق فقط، وبنفس الطريق يعرف الروح ذاته أيضًا.

***

د. نيفين صبح

- الدكتورة نيفين صبح.

- تخرجت في كلية الدراسات الإنسانية، قسم اللغة الألمانية وآدابها بجامعة الأزهر.

- درست في مرحلتي الماجستير والدكتوراه في كلا من جامعة فرانكفورت و جامعة هيدلبرج بألمانيا.

- حصلت على درجة الدكتوراه عام 2012.

- تعمل حاليًا كمدرس في قسم اللغة الألمانية وآدابها بجامعة الأزهر.

- لها العديد من الأبحاث الدولية المنشورة في تخصص الأدب الألماني الحديث والأدب المقارن وترجمات أدبية في الرواية والقصة القصيرة.

الفهرس

الجزء 1: الوعي

الجزء 2: العقل

الجزء 3: الروح